وقف الإمام الهبطي
أبي عبد الله محمد بن أبي
جمعة ت ٩٣٠ هـ

في سوس دخوله ومواقف
السوسيين منه
وجهودهم في خدمته

د/حسن عبد الهادي حميتو

: كلية الآداب ـ جامعة ابن زهر/ أكادير

تنسيق: طالب العلم/
جمعة بن عبد الله الكعبي

بتاريخ: 5 / ربيع أول / ١٤٣٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وقف الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي في سوس دخوله ومواقف السوسيين منه وجهودهم في خدمته

د/ حسن حميتو
كلية الآداب ـ جامعة ابن زهر
أكادير

الحمد لله واسع الفضل والعطاء، ومسبغ المنن والآلاء، أحمده سبحانه وأشكره، وأستهديه وأستغفره، وأصلي وأسلم صلاة وسلاما متجددين ناميين على نبيه المصطفى ورسوله المجتبى وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

السادة رؤساء المجالس العلمية لجهة سوس ماسة درعة، السادة الأساتذة والعلماء والفضلاء، أيها الحضور الكريم، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فإنها لمناسبة طيبة مباركة أن نلتقي في هذا العرس العلمي البديع، الذي التأم فيه هذا الجمع البهي من العلماء الأماجد والأساتذة الأفاضل ليفيدوا الحاضرين الذين أموا هذا المجمع العلمي الكريم بما أعدوه من مساهمات قيمة ومشاركات وازنة في موضوع هذه الندوة حول "جهود السوسيين في خدمة القرآن الكريم".

أيها الأفاضل: لا يملك مطلع على التراث العلمي السوسي إلا أن يسجل بإعجاب ما لعلماء هذا القطر السوسي المجيد في مختلف مجالات المعارف الشرعية والعربية وغيرها من إسهامات بارزة وعطاءات علمية متميزة كَمّا ونوعا على امتداد تاريخ الإسلام في هذه الربوع، وهو ما كشف عن جانب منه مهم مؤرخ البلاد السوسية وما إليها الشيخ العلامة محمد المختار السوسي في مختلف مؤلفاته التي رصدها لإبراز أئمة العلم ورجالات الفكر في هذه الربوع خاصة في كتابه الماتع "المعسول" وكتبه "في خلال جزولة" و"سوس العالمة" و"رجالات العلم العربي في سوس" وغيرها.

ولعل أبرز ما برَّز فيه العالم السوسي وتصدر فيه ليس في سوس وحدها بل حيثما حل من بلاد المغرب وغيرها، كتاب الله العزيز والعلوم الخادمة له والدائرة في فلكه. وهو جانب عظيم من جوانب النبوغ السوسي ما زال في حاجة إلى مزيد تجلية وكشف بالبحث في رجالاته وجهودهم وإسهاماتهم الوازنة في نواحيه المختلفة.

وقد أحسنت المجالس العلمية الجهوية لجهة سوس ماسة درعة صنعا حين اختارت هذا الجانب لتتناوله أقلام الباحثين بالبحث والدرس والبيان في هذه الندوة العلمية الثانية.

إن جهود السوسيين في هذا الجانب ـ لا شك ـ جهود جبارة متنوعة المناحي بتنوع علوم القرآن الكريم ومجالات التأليف والإبداع فيها وقد وقع الاختيار مني على جانب مهم منها كان للقارئ السوسي بصماته الواضحة وإسهاماته المتميزة فيه، ألا وهو علم الوقف القرآني المرتبط خاصة بالوقف الذي درج عليه المغاربة منذ القرن العاشر المنسوب للشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي السماتي (ت ٩٣٠ هـ) فكان موضوع هذه المشاركة بعنوان :"وقف الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي في سوس : دخوله ومواقف السوسيين منه وجهودهم في خدمته". وقد جعلت الكلام في هذا البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ، على التصميم التالي:

ـ المقدمة : بينت فيها الأسباب والدواعي التي حدت بالمغاربة إلى اعتماد وقف قرآني موحد وشامل.

ـ المبحث الأول: جعلته للحديث عن الإمام الهبطي والتقييد المنسوب إليه

ـ المبحث الثاني: تحدثت فيه عن دخول وقف الهبطي إلى البلاد السوسية : القنوات والإسهامات.

ـ المبحث الثالث: رصدت فيه مواقف قراء سوس من هذا الوقف وما ثار حوله من سجال. وجعلته في مطلبين:

ـ المطلب الأول: المؤيدون لوقف الهبطي وجهودهم في خدمته.

ـ المطلب الثاني: المعارضون لوقف الهبطي ومسوغاتهم في ذلك.

ـ خاتمة: تحمل أهم نتائج البحث .

والله أسأل الإخلاص في القصد، والسداد في القول والعمل، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المقدمة

ارتبط ظهور الوقف القرآني الموحد في القراءة المغربية حتى عد أحد سماتها المميزة بعدة أسباب موضوعية لعل أهمها ثلاثة:

أسباب رئيسة هي[1] :

١ ـ انتشار الأخذ بالقراءة الجماعية في الأقطار المغربية في المساجد والمدارس والمحاضر وغيرها، واستحسان المغاربة لها طريقة لمدارسة القرآن الكريم وتلاوته خاصة في الحزب الراتب، الذي كان الموحدون قد عمموه رسميا في بلاد المغرب والأندلس، وألزموا به منذ صدر المائة السادسة للهجرة أئمة المساجد بعد صبح كل يوم ومغربه[2]، وهي قراءة لا تستقيم إلا باعتماد وقف موحد يعرفه العموم ويلتزمون به حتى تكون قراءتهم متوافقة تجري في الوقوف والابتداء على سنن واحد. يقول الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله :"وقد أمر يوسف بن عبد المومن الموحدي ـ رغم كراهة مالك لقراءة القرآن جماعة ـ بتأسيس قراءة الحزب في المساجد، ومنعت قراءته بدون تجويد، وتيسيرا لذلك قام العلامة محمد بن أبي جمعة الهبطي بوضع طريقة لوقف القرآن لم تكن معروفة في المشرق"[3].

٢ ـ الحاجة إلى هذا الوقف الموحد في صناعة الجمع والإرداف حيث تجمع في الأداء أكثر من قراءة ورواية، وهي صناعة برع فيها المغاربة وقننوها ووضعوا لها ضوابط اشتملت عليها مؤلفات خاصة، فاحتيج في تيسير هذه الصناعة إلى اعتماد وقف موحدٍ مُعَيَّنِ المواضع يمكن القارئ من ترتيب الخلاف واستقصاء وجوه القراءات والروايات والأداء في اختصار سالم من التلفيق والتركيب أو الإغفال[4]. وغَلَّب بعض القراء هذا السبب في ظهور الوقف الموحد وبخاصة وقف الهبطي، ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الصوابي (ت ١١٤٩ هـ) حيث قال عنه تلميذه الحضيكي في مناقبه :"كان ـ رضي الله عنه ـ يخبر بأن الرجل الصالح سيدي موسى الوسكاري أول من جاء سوس بهذا الوقف الهبطي،

---

[1] ـ انظر في هذا الجانب مقدمة الدكتور الحسن وجاج لتحقيق تقييد وقف القرآن الكريم للهبطي ص ٢٥ ، ١١٨ ـ ١٣١، ١٨٢ وبحث الوقف الهبطي أهم مياسم التلاوة القرآنية في المغرب للدكتور عبد الهادي حميتو ، منشور بمجلة المجلس الصادرة عن المجلس العلمي الأعلى للملكة ـ العدد السادس ، صفر ١٤٣٠ ، فبراير ٢٠٠٩ ، ص ٧٢ .

[2] ـ ينظر في ذلك نظم الجمان لابن القطان المراكشي ص ١٧٢ والمن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ص ١٦٣ ـ ١٦٤ والمعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٤١٥ والاعتصام للشاطبي [٣٣١/٢] وجذوة الاقتباس لابن القاضي [٧٤/١ ـ ٧٥].

[3] ـ معجم المحدثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى والأندلس ص ٥ .

[4] ـ مقدمة تقييد وقف القرآن الكريم ص ١٢٤ .

وأنه لا يجود به إلا لمن يردف بالقراءات، ويقول : إنما وضعه واضعه لذلك، وينهى طلبته وأولاده الذين أدركناهم أن يقرأوا به الحزب الراتب، وأن يجودوا به للمتعلمين الذين لم يقرأوا بالقراءات"[1]. وهو نفس ما قرره الشيخ عبد السلام بن محمد المدغري في أرجوزته "تكميل المنافع" حيث قال :

واسلك طريق الهبطي في الأوقاف فإنـــــــه لصـــــــنعة الأرداف
ســـهل معـــين إذ بـــه جـــرى العمـــل فـــي غربنـــا ذا وبـــه الأدا حصـــل[2]

ورجح هذا السبب في اعتماد الوقف الموحد أيضا الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي في كتابه المحاذي ، وهو ما جعله يبني كتابه على ركنين : ركن في كيفية الجمع والإرداف وما يجوز فيه من وقف وابتداء، وركن في شرح وقوف الهبطي[3]. ويشهد لما يجده أصحاب الجمع والإرداف في هذا الوقف الموحد من تيسير لهذه الصناعة ما ذكره الخليفتي في "الدرة الجليلة في مناقب الخليفة" عن الشيخ أحمد الخليفة ـ أحد أبرز شيوخ الزاوية الناصرية من مشيخة أبي العباس الصوابي ـ أنه إبان أخذه القراءات السبع عن ابن أخيه المقرئ عبد الله بن محمد الكبير ابن ناصر، كتب له ابن أخيه اللوح ذات يوم ووقفه له بالوقف الهبطي، فلما رأى ذلك الشيخ الخليفة أنكره عليه وقال له :"ماذا تفعلون بالبدع؟ أردتكم تتبعون المحمدية وأنتم ترتكبون البدع مالكم ولها؟ قال : فقلت له : ياعمي وما حملني على الهبطي إلا أنه سهل عليك في الإرداف. قال : فقال لي : السنة أولى وأسهل،
قال: فرجعت ومحوتها وكتبتها ووقفتها بالوقف السني، ورجعت إليه ومددتها له فاستبشر غاية"[4].
لكن في استقلال هذا السبب بكونه الباعث وحده على اعتماد المغاربة وقف الهبطي الموحد نظر؛ لما يلاحظه الدارس لوقف الهبطي من أنه يراعي في غالب وقوفه،

---

[1] ـ طبقات الحضيكي [١٠١/١] .
[2] ـ تكميل المنافع في الطرق العشرية للمدغري (مخطوط خاص).
[3] ـ المحاذي : باب ذكر معرفة الوقف والابتداء (مخطوط) والقراءات والقراء في المغرب ص ١٩٤ ومقدمة تقييد وقف القرآن الكريم ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
[4] ـ جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية للدكتور أحمد عمالك [٢٨٦/٢ ـ ٢٨٧] فيما نقله عن الدرة الجليلة للخليفتي ص ١٥٣ .

ـ ومنها طائفة كانت محل اعتراض عليه ـ مذهب نافع في وقف التمام دون بقية القراء السبعة أو غيرهم الذين لكل قارئ منهم مذهب في الوقف والابتداء[1]، مما يدل على أن وقف الهبطي لم يوضع ابتداء لأصحاب "الإرداف والروايات"، وإن كانوا ربما وجدوا فيه ما ييسر عليهم صناعة الإرداف والأداء الجامع[2].

٣ ـ ضعف الملكة اللغوية وضحالة المعرفة بالعربية عند عامة الطلبة وأهل القرآن الكريم خاصة في القرون المتأخرة، مما يجعلهم قاصرين عن تمييز أماكن الوقوف الجائزة في القرآن بناء على ملاحظة المعنى الصحيح من تلقاء أنفسهم، فربما وقفوا على ما لا يجوز الوقوف عليه ، أو وصلوا آية رحمة بآية عذاب، فيفسد المعنى ويضيع المراد[3] . وهذا النوع من القاصرين من قراء المغرب هم الذين يزاولون تعليم القرآن بالمدن والقرى عادة، ولكثرتهم كان تأثيرهم في المتعلمين قويا فكانت حاجتهم إلى مثل هذا الوقف الموحد ملحة[4] .

ولهذا الضعف في العربية عند الطالب المغربي خاصة في عهد الشيخ أبي عبد الله الهبطي وما بعده أسباب لعل أهمها اثنان :

ـ أولهما : طبيعة البرنامج التعليمي وصورة ترتيب الطلب والتحصيل عند المغاربة، إذ يقدمون فيه القرآن الكريم وعلومه على علوم اللسان، فربما صرف الطالبَ التوسعُ في تلك العلوم أو الانقطاع بعدها عن الطلب عن أخذ شيء من علوم اللسان، مما يجعل غالب طلبة القرآن وحفاظه أميين في العلوم العربية والشرعية.

وقد سجل هذا الملحظ المؤرخ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) حيث قال في مقدمته :" فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة. وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة،

---

[1] ـ ذكر ذلك المحقق ابن الجزري في النشر [٢٣٨/١] وينظر ما كتبه في ذلك الدكتور وكاك في مقدمة تحقيقه لتقييد وقف القرآن للهبطي ص ٧١ ـ ٧٦ .

[2] ـ انظر ما قرره في هذا الموضوع الدكتوران الفاضلان الحسن وكاك في مقدمة تحقيقه لتقييد وقف القرآن الكريم للهبطي ص٧٥ وعبد الهادي حميتو في قراءة الإمام نافع عند المغاربة [١٩٧/٤ ـ ٢٠٤].

[3] ـ القراءات والقراء بالمغرب ص ١٨١ ومقدمة تحقيق وقف الهبطي ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

[4] ـ ينظر القراءات والقراء بالمغرب لسعيد أعراب ص ١٨٠ ومقدمة الدكتور وجاج لتحقيق كتاب تقييد وقف القرآن الكريم للهبطي ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم. وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم. إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب"، إلى أن يقول :" فأما أهل إفريقية والمغرب، فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها. وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام، وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب، لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله"[1].

وقد سبق ابنَ خلدون إلى تسجيل هذه الملاحظة على المنهج التعليمي العام للمغاربة الإمامُ أبو بكر بن العربي المعافري (ت ٥٤٣ هـ) في طائفة من كتبه، واقترح على أهل المغرب بناء على ذلك السعيَ لتغيير ترتيب منهجهم التعليمي وأولوياتهم في الطلب والتحصيل التي يعتمدونها في تعليمهم بتقديم علوم اللغة والحساب على العلوم الشرعية والعقلية أسوة بما عليه أهل المشرق، ومما قاله في ذلك في كتابه قانون التأويل تحت عنوان (ذكر ترتيب الطلب):"ولكن ربما فات كثيرا من الناس كيفية الطلب، وأولها القصد إلى تعلم علم العربية والأشعار فإنها ديوان العرب، التي دفعت إليها ضرورة فساد اللغات... ثم انتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر لك بهذه المقدمات". قال :"وياغفلة بلادنا في أن تأخذ الطفل بكتاب الله في أول أمره، فيقرأ ما لا يفهم، وينصب في أمر غيره حينئذ عنده أهم، ولا يبسط هذا المطلوب العظيم بساطه، ويعد له نشاطه"[2].

---

[1] ـ مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٢ . ٢٩٣.

[2] ـ قانون التأويل ص٦٤٣ ـ ٦٤٤، ونقل مثله ابن خلدون في مقدمته ص٢٩٣ عن كتاب "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة" لابن العربي، وهو مفقود، وقد اختصره ابن العربي، وطبع مختصره بتحقيق الأستاذ سعيد أعراب بذيل كتابه "مع القاضي أبي بكر بن العربي"، طبع دار الغرب الإسلامي ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

وقد توسع الإمام ابن العربي في نظريته هذه في ترتيب الطلب في سراج المريدين حيث قال:"وقد كان علم الألفاظ والمقاطع ومدلولاتها عند الصدر الأول؛ لأنهم كانوا عربا عُربا يعرفون معاني الألفاظ ومقاطع الكلام، ثم اختلف الخلق حتى فسدت الألسن، وضلت القلوب عن الحقائق حتى فسدت المعاني، فتعين علينا ـ والحالة هذه ـ أن نبدأ بعلم الألفاظ على وجه دلالتها على مدلولها، وأن نعلم مقاطع التعبير عنها، وهي الفصاحة التي تميز بها لسان العرب الذي ورد القرآن به، وهو الذي نحاول معرفته، فينبغي أن ينشأ الطفل على تعلم العربية ومقاطع الكلام، ويحفظ أشعار العرب وأمثالها..." إلى أن يقول:"ويدرس القرآن عند استقلاله ببعض هذه المقاصد، حتى إذا روى من هذا الغرض مشى إلى العالم فأقرأه تفسيره ودرسه إياه بمعناه ويأخذه به من أوله فلا يخطئ في وجهين : أحدهما : أن يعلمه القرآن منكوسا ، ولا يقرؤه كذلك إلا منكوس القلب. الثاني : أن يحفظ الصبي كتاب الله وهو لا يعقل منه حرفا، فيتكلف استظهار ما لا طاقة له به، وإنما يمر عليه كالعربي يحفظ التوراة بالعبرانية"[1].

هذه النظرية الوجيهة لقيت استحسانا من ابن خلدون[2] وتمنى لو أخذ المغاربة بها ، لكنه استبعد ذلك لما للعوائد من سلطان على أحوال الناس. قال رحمه الله :" وهو لعمري مذهب حسن، إلا أن العوائد لا تساعد عليه، وهي أملك بالأحوال. ووجه ما اختصت به العوائد من تقديم دراسة القرآن، إيثاراً للتبرك أو الثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم ، فيفوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم. فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة، فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن له لئلا يذهب خلواً منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم، وقبوله التعليم، لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ولكن الله يحكم ما يشاء، لا معقب لحكمه سبحانه"[3].

ـ أما الثاني في أهم أسباب ضعف الطالب المغربي في علوم اللسان فهو ما درجت عليه مشيخة الإقراء في المغرب

---

[1] ـ سراج المريدين (٥٩/ ب) (مخطوط) .

[2] ـ كما أطال في تقريرها واستحسانها وسوق الأدلة عليها الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق الغرناطي (ت ٨٩٦ هـ) في كتابه القيم روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام [٥١٧/٢ ـ ٥٢٤].

[3] ـ مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٣.

ـ وبخاصة في القرون المتأخرة ـ من الإقبال على القراءات القرآنية وعلومها والتوسع في علوم المصحف قراءة ورسما وضبطا وأداء، وإهمالهم ـ في الغالب ـ ما عدا ذلك من العلوم اللسانية واللغوية والشرعية ، مما نجم عنه ضعف في الملكة اللغوية عند كثير من مشيخة الإقراء بله صغار القراء. وهو ما سجله عنهم شيخ الجماعة أبو محمد عبد الله الهبطي في ألفيته المعروفة في إنكار البدع والمسماة بـ"الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوه من التغيير في الملة الإسلامية"[1] حيث يقول فيها:

أمـــا الـــذين يقـــرؤون القـــرآ فإنهم على سبيل الشيطان
تـــرك الصـــلاة عنـــدهم مشـــهور وإن تكن يفوتها الحضور
مـــا عنـــدهم بالاحتفـــال معـــروف إلا الذي أتى بعلم المحذوف
قـــد ضـــيعوا علـــم أصـــول الـــدين كضيعة المفروض والمسنون
إن ســـمعوا فـــانقط عليـــه حمـــرة فسارعوا له أشد الغدرة[2]

وهو ملحظ لاحظه أيضا على قراء المغرب السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي في رسالته "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان"[3]، ولاحظه في عصره الشيخ محمد بن سعيد المرغيتي الأخصاصي السوسي (ت ١٠٨٩ هـ)[4] في رسالة لأحد طلبته يوصيه فيها أن لا يشغل تلامذته بتفاصيل الرسم والضبط عن علوم اللغة والتوحيد ومعرفة فروض الأعيان[5] .
لقد ترتب على هذا الضعف في اللسان عند الطلبة تفكير مشيخة الإقراء في وضع والتزام وقوف موحدة تلقن للطالب مع لوحه من القرآن يتعلمها ويلتزم بها في قراءته؛ لأنه لو وُكل لعلمه وفهمه لوقف حيث لا يجوز الوقوف؛ إذ "لا يقوم بالتمام في الوقف.

---

[1] ـ تقع في الف وستة وستين بيتا ، منها نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط في مجموع برقم ٢٨٠٨ . كما أورد منها الأبيات المتعلقة بالقراء الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي في القول الوجيز ص ١٢٦ .
[2] ـ حاول الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي دفع هذه التهمة عن قراء القرآن في زمنه فألف في الرد على أبي محمد الهبطي كتاب "القول الوجيز في قمع الزاري على حملة كتاب الله العزيز" وهو مطبوع .
[3] ـ من مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية بتحقيق أحمد العلوي عبد اللوي، سنة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .
[4] ـ ترجمته في المعسول [١٠/١٨٥ ـ ١٨٦] .
[5] ـ هي رسالة وجهها الشيخ محمد بن سعيد المرغيتي من مراكش لتلميذه العروسي بن عبد الجراري، وفي ختامها بخط ناسخها : خرجها لنا شيخنا سيدي محمد بن أحمد الحضيكي لطف الله به آمين ، وأمرنا بقراءتها كل يوم خميس وجمعة والعمل بها...رجاء بركة صاحبها. وهي بخط الحسن بن الحسين بن أحمد الشبي الأزاريفي. والنسخة التي اطلعت عليها لهذه الرسالة في مكتبة الشيخ الفاضل إذابراهيم ابراهيم التامري حفظه الله، وقد سلمني مشكورا مأجورا نسخة منها مكتوبة بخط يده أثابه الله .

ـ كما يقول ابن مجاهد ـ إلا نحوي عالم بالقراءات وعالم بالتفسير والقصص وتخليص بعضها من بعض، عالم باللغة التي نزل بها القرآن"[1]. وهاهو الشيخ محمد التهامي الأكمه الصحراوي يبين صعوبة هذا العلم وفقدان أهله بالمغرب من زمن بعيد فيقول :

ولا يفي ذا المعنى إلا من له حظ في الاعراب وصح أخذه
عن الشيوخ المقرئين الراسخين في هذا الفن الجامعين المانعين
وعدموا الآن في أرضنا وإن وجدوا في غيرها مع ثرى قَمن[2]

إن هذه الأسباب الثلاثة متضافرة حتمت على قراء المغرب أن يجعلوا للوقف القرآني منهجا موحدا في الوقف والابتداء، خصوصا وهم الميالون بطبيعتهم إلى الوحدة في كل شيء : في العقيدة والمذهب والقراءة[3] ، فكانت أول المحاولات في ذلك ربما ترقى إلى منتصف المائة التاسعة على يد الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن الحسين الصُّغَيِّر الأوربي النيجي (ت ٨٨٧ هـ) شيخ الإمام الهبطي، فإنه وضع تقييدا للوقف القرآني ما تزال منه نسخة خطية فريدة في بعض خزائن المغرب[4]. ولعل هذا العمل كان فاتحة مشروع سيتبناه بعد الشيخ أبي عبد الله الصغير تلميذاه الإمامان أبو عبد الله ابن غازي المكناسي (ت ٩١٩ هـ) وأبو عبد الله الهبطي (ت ٩٣٠ هـ)، حتى يظهر في نهايته في صورة هذا التقييد الذي اشتهر بالنسبة إلى المتأخر منهم وفاة وهو الإمام أبو عبد الله الهبطي[5]، فيكون لأبي عبد الله الصغير فضل السبق والتأسيس لهذا المشروع ولابن غازي فضل التنقيح والتأصيل، وللهبطي فضل الرواية والنشر.

---

[1] ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي [٢٩٦/١] .
[2] ـ مقدمة تحقيق تقييد وقف الهبطي ص ١٣٠ .
[3] ـ القراءات والقراء بالمغرب ص ١٨٢ .
[4] ـ وهي نسخة الخزانة الناصرية بتمكروت تحت رقم ١٦٥٧ كتب عليها :"تقييد وقف القرآن عن الأستاذ محمد بن الحسن الملقب بـ"الصَّغَيِّر" . ينظر التعريف بهذه النسخة في دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية للأستاذ محمد المنوني ص ١٠٥ .
[5] ـ ينظر قراءة الإمام نافع عند المغاربة [١٩١/٤ ـ ١٩٢] .

المبحث الأول : الإمام الهبطي وتقييد وقف القرآن الكريم المنسوب إليه

أ ـ نبذة عن الإمام الهبطي[1] :

هو الشيخ الإمام العلامة الفقيه الأستاذ المقرئ الكبير النحوي الفرضي الشهير الولي الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي الصماتي الفاسي .

لم تذكر المصادر من شيوخه غير الإمامين أبي عبد الله محمد بن الحسين بن حمامة النيجي الأَوْرَبي المعروف بـ"الصُّغَيِّر" (ت ٨٨٧ هـ) إمام جامع الأندلس، وأبي عبد الله محمد بن غازي المكناسي (ت ٩١٩ هـ)، وذكرت من تلاميذه ستة هم : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر السنوسي الحسني االتلمساني، وأبو عبد الله محمد بن علي بن عدة العدي الأندلسي، وعبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم المشترائي الدكالي، وعبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي، وأبو الحسن علي بن عيسى الراشدي، وأبو القاسم محمد بن إبراهيم صهره على ابنته ووارث خزانته من بعده.

أما آثاره فلم تسم منها المصادر إلا كتابين هما :"تقييد وقف القرآن" وبه اشتهر عند أهل المغرب، وكتاب "عمدة الفقير في عبادة العلي الكبير"[2]، ونسب له بعض فضلاء الباحثين كتابا في شرح تصوير الهمز[3] .

كانت وفاته ـ رحمه الله ـ بفاس سنة ٩٣٠ هـ، ودفن بباب روضة سيدي عبد الرحمن الهزميري برأس القليعة من فاس الأندلس، وقيل : دفن بطالعة فاس قرب الزربطانة.

ب ـ تعريف بتقييد وقف القرآن الكريم المنسوب للهبطي ورجال سنده

تقييد وقف الهبطي أو "الوقفية" هو مخطوط يتألف من الكلمات التي اختار هذا الشيخ الوقف عليها باعتبارها تقييدا وتعيينا لأماكن الوقوف الصالحة مرتبة حسب ترتيب المصحف الشريف، ونسخ هذا التقييد منتشرة في الخزائن العامة والخاصة، ومعظمها يحمل عبارة "مما قيده عنه بعض تلامذته"،

---

[1] ـ جذوة الاقتباس لابن القاضي [٣٢١/١] ترجمة ٣٣٣ ودرة الحجال له [١٥٢/٢] ترجمة ٦٢٧ ولقط الفرائد له ص ٢٩٠ (ضمن كتاب الف سنة من الوفيات) وفهرس المنجور ص ١٢ـ ٨٨ ونيل الابتهاج للتمبوكتي ص ٣٣٥ ونشر المثاني للقادري [٣٥/١] وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني [٢٦٨/١] و[٦٧/٢ ـ ٦٨] ومقدمة تحقيق تقييد وقف القرآن الكريم للحسين وكاك ص ١٨ ـ ٢٦.

[2] ـ منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط برقم ٢٠٠٨ د ضمن مجموع .

[3] ـ وهو السيد الوالد الدكتور عبد الهادي حميتو ـ حفظه الله ـ في كتابه قراءة الإمام نافع عند المغاربة [٤٧١/٢].

مما يوهم عدم وجود إسناد له يتصل بالإمام الهبطي، ويقتضي الجهالة براويه المقيد له مما ينزله عن مقام الاعتبار ويحجب عنه الثقة بصحة نسبته للإمام الهبطي.

لكن وقوف كل من الشيخين الفاضلين : الدكتور الحسن وكاك والدكتور عبد الهادي حميتو على نسختين عتيقتين لهذا التقييد قد رفع تلك الجهالة عن مقيد وقف الهبطي وكشف اللثام عن الحلقة المفقودة في سند هذا التقييد . فقد وقف الدكتور وكاك بخزانة المعهد الإسلامي بتارودانت على نسخة عتيقة للتقييد المنسوب للهبطي[1] يستفاد منها أن مقيد الوقف هو محمد المرابط البعقيلي السوسي، وقد جاء في ديباجتها : أنه "قيد هذا الوقف بإذن من شيخه المقرئ السيد الترغي"[2] ، كما وقف بعده على نسخة أخرى عتيقة من التقييد الدكتور عبد الهادي حميتو بخزانة أوقاف آسفي[3] ، وجاء في ديباجة هذه النسخة ما نصه :"وقيده بعض أصحابنا ، وهو العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن محمد المرابط البعقيلي عن شيخنا الأستاذ المحقق النحوي خديم كتاب الله العزيز أبي عبد الله سيدي محمد بن يوسف الترغي ـ وفقه الله وسدده ـ بعدما استأذنه في ذلك فأذن له ، رضي الله عنه ، وجزاه عن العلم خير ما جزى بمنه وفضله، إنه سميع قريب ، وبالإجابة جدير". وينتهي التقييد بقوله :"كمل التقييد بحمد الله تعالى وحسن عونه ، قيد هذا الوقف صاحبنا في الله حقا سيدي محمد بن أحمد بن محمد المرابط البعقيلي عن شيخنا الأستاذ النحوي المقرئ المحقق أبي عبد الله سيدي محمد بن يوسف المسمى بـ"الترغي" نفعنا الله ببركاته وبركات أمثاله"، ثم قال:"على يد كاتبه محمد بن أحمد بن داود ... وكان الفراغ منه قبل الزوال من يوم السبت الوافي أحد عشر يوما من ربيع الثاني عام ثلاث وستين وألف".

فالنسختان ـ إذن ـ ترفعان اللثام عن سند "تقييد وقف الهبطي" ، حيث تتفقان معا في تعيين من قُيِّد عنه هذا الوقف، وهو : الأستاذ المجود المقرئ النحوي الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن موسى المساري الترغي، نسبة إلي بني ترغة من قبائل الريف، الفاسي مولدا، المراكشي دارا ، المولود بفاس سنة ٩٤٣ هـ والمتوفى بمركش بالطاعون العام سنة ١٠٠٩ هـ أو سنة ١٠١٤ هـ[4] ، وهو أحد كبار مشيخة العصر

---

[1] ـ ذكر الدكتور وكاك أنه بخزانة تارودانت برقم ٤٢ وأرفق صورا من أوله وآخره في ص ٣٤ ـ ٣٥.

[2] ـ مقدمة تقييد وقف القرآن ص ٣٤ ـ ٣٥ .

[3] ـ مخطوط في مجموع عتيق محفوظ بالخزانة الوقفية لآسفي الملحقة بالمندوبية الجهوية للشؤون الإسلامية بدون ترقيم .

[4] ـ درة الحجال : ٢ / ١٦٤ ترجمة ٦٣٨ . وانظر في ترجمته أيضا نشر المثاني للقادري ١ / ٧٨ وصفوة من انتشر لليفرني ص١٣٠ وطبقات الحضيكي ٢ / ٤٤ ـ ٥٤ والإعلام للمراكشي [١٩٢/٥].

في عهد السلاطين السعديين ومؤدب أبنائهم، وكانت له حظوة خاصة عند السلطان عبد الله الغالب بالله السعدي[1] (ت٩٨١ هـ) حتى كلفه أن يطلب له شيخا للتربية يصطفيه من مشايخ المغرب فدله على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى التازاروالتي الجزولي السملالي (ت ٩٧١ ه)[2]. قال اليفرني : "ولد بفاس ، ونشأ بمراكش، وكان ـ رحمه الله ـ أستاذا مجودا ، عارفا بالمقارئ السبعة محققا فيها ، مع المشاركة في غيرها من الفنون ، والحفظ التام ، واستحضار المسائل ، وهو مؤدب أولاد الملوك"[3].

وقال أبو زيد التمنارتي : شدت إليه الرحال لأخذ القراءة عنه ، وتزاحمت ببابه الركبان ، وعنه انتشرت القراءة بالمغرب بسائر طرقها"[4] .

ويشعر ما في ديباجة نسخة أوقاف آسفي من قول الناسخ :"عن شيخنا ... أبي عبد الله سيدي محمد بن يوسف الترغي ـ وفقه الله وسدده" أن هذا التقييد قيد عن الترغي في حياته، كما يشعر أن كلا من مقيده المرابط البعقيلي وناسخه محمد بن أحمد بن داود تلميذ للشيخ الترغي.

لكن الشيخ الترغي المقيد عنه هذا الوقف الهبطي لم يدرك الإمام الهبطي، فولادته كانت سنة ٩٤٣ هـ أي بعد وفاة الهبطي (ت ٩٣٠ هـ) بثلاث عشرة سنة، مما يعني أنه أخذ "تقييد الوقف" عن بعض تلاميذ الهبطي، فقد ذكر ابن القاضي في ترجمته أنه قرأ على أبي القاسم محمد بن إبراهيم المشترائي الدكالي صهر الهبطي زوج ابنته المتقدم في تلاميذه الذي آلت إليه خزانته، فالراجح أنه هو الواسطة في سند "تقييد الوقف" بين الشيخين الترغي والهبطي، كما ذكر ابن القاضي أن الترغي أخذ أيضا عن ابن عدة العدي[5] وأبي الحسن الراشدي التلمساني نزيل فاس[6]، وكلاهما من تلاميذ الهبطي كما تقدم، فمن المقطوع به ـ إذن ـ أن الترغي يسند "تقييد الوقف" إلى الهبطي بواسطة واحد أو أكثر من هؤلاء المقرئين الكبار من أصحاب الإمام الهبطي، مما يجعل إسناد هذا التقييد متصل الحلقات ويجعل التقييد في منزلة رفيعة من الوثوق والقيمة العلمية.

---

[1] ـ تنظر أخباره في نزهة الحادي ص ٩٧ والاستقصا [٣٨/٢ ـ ٥٧] .

[2] ـ انظر قصة ذلك في المعسول [١٤/١٢ ـ ٢٠] .

[3] ـ صفوة من انتشر : ١٣٠ ـ ١٣١.

[4] ـ صفوة من انتشر لليفرني : ١٣٠ ـ ١٣١ ـ و أصله في الفوائد الجمة للتمانارتي : ١١٢ .

[5] ـ درة الحجال : ٢ / ٢١٣ ترجمة ٦١٩ ـ وانظر فهرس أحمد المنجور : ٦٥ ـ ٦٦ .

[6] ـ جذوة الاقتباس لابن القاضي : ٢ / ٤٩١ ترجمة ٥٥٩ وانظر فهرس أحمد المنجور : ٦٧ ـ ٦٨ .

أما المقيد لهذا الوقف عن الشيخ الترغي المستأذن له فيه فهو : الشيخ محمد بن أحمد بن امحمد بن عبد الواسع المرابط البعقيلي، من علماء سوس ، وهو مؤلف كتاب مناقب البعقيلي[1]، وفيه يقول مما يدل على أنه هو صاحب التقييد : "

وذكر لي شيخنا الأستاذ المحقق المتفنن سيدي محمد بن يوسف الترغي مشافهة أنه كان يتمنى أن يرى وليا من أولياء الله في قيد الحياة بسمته ونعته ... ثم ذكر قصة زيارتهما لسيدي عبد الرحمن بن علي[2] في بلاد جزولة وما قابلهما به من حسن الضيافة"[3]. وفي المعسول ترجمة للبعقيلي قال فيها :" فقيه صوفي. أخذ عن الأستاذ سيدي محمد بن إبراهيم البعقيلي من (أيت فروين) جد (آل سيدي عمر) البونعمانيين المذكورين في (الجزء الثاني عشر)، ثم صاحب الشيوخ الكبار سيدي أحمد بن موسى. وسيدي عبد الرحمن التيلكاتي. وسيدي عبد الله بن سعيد الحاحي. كما أخذ أيضا القراءات عن الأستاذ سيدي محمد بن يوسف الترغي. وأحسبه انقطع إلى زاوية الشيخ سيدي عبد الله بن سعيد ككثيرين أخذوا عنه من (جزولة) كسيدي يحيا بن يدير التازروالتي. وسيدي عبد الله بن داود من أهل (تانوت ويجان) الدغوغي وسيدي أحمد بن علي البوسعيدي دفين (فاس) ثم إن المترجم ذكر أنه كان نحو أربع سنين في (أسرير) من (وادي نون) ويظهر أنه يشارط على عادة أمثاله من الفقهاء. وله محبة خاصة في الصالحين. يتحرى قبورهم بالزيارة. فأداه ذلك إلى أن جمع فيهم كراسه المشهور الذي يسميه الناس (مناقب البعقيلي) وهو أول من ألف فيما نعرف في رجالات (جزولة) لولا معاصره التامانارتي صاحب (الفوائد الجمة) ولم نقف على من ترجمه ترجمة يستحقها حتى وقت وفاته لا نعرفه . وإنما نحسب أنه توفي بعد العشرة الثانية من القرن الحادي عشر. أو قبله بقليل. وعيب ما كتبه أنه لا يعتني بالوفيات إلا قليلا جدا."[4].

وقد خلص الباحثون في دراساتهم حول التقييد المنسوب للإمام الهبطي إلى ترجيح أن تكون نسبته إليه إنما هي نسبة اعتناء ونشر، وأنه يرجع في أصله إلى جهود رائدة كانت قبله لشيخه أبي عبد الله الصُّغَيِّر في محاولة منه لوضع وقف قرآني عام ،

---

[1] ـ طبع بتحقيق العلامة محمد المختار السوسي في سلسلة مصادر المعسول رقم ١.

[2] ـ ترجمة عبد الرحمن بن علي بن محمد الجزولي الحامدي في الفوائد الجمة ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

[3] ـ انظر مناقب البعقيلي ٢٩ ـ ٣٠ .

[4] ـ المعسول [١٢٩/١١].

ثم لشيخه الثاني الذي يشاركه الأخذ عن أبي عبد الله الصُّغَيِّر وهو الإمام أبو عبد الله ابن غازي[1] . يقول القادري في نشر المثاني في ترجمة الهبطي :"وهو ممن أخذ عن ابن غازي وعنه قَيَّد الوقف"[2].
وهو ما أكده الحجوي في الفكر السامي بقوله في ترجمة الهبطي: الإمام الفقيه النحوي الفرضي الأستاذ المقرئ ، وهو الذي يقرأ أهل المغرب بالوقف الذي جعله في القرآن الكريم منذ زمنه إلى الآن مطبقين عليه، وهو أخذه عن الإمام ابن غازي عن شيخه ، وإن كان في بعضه نظر، ولكن تلقاه قراء المغرب بالقبول"[3]. ويقوي انخراط الشيخ ابن غازي في هذا المشروع ـ خلافا لمن استبعد ذلك[4] ـ بالإضافة إلى كلام القادري والحجوي المتقدم أمران :
ـ أولهما : كون ابن غازي من تلاميذ أبي عبد الله الصغير الذي سبقت الإشارة أن له وقفية ما تزال منها نسخة خطية فريدة في بعض خزائن المغرب[5]، فليس بعيدا أن يتلقى عنه ابن غازي مادة هذه الوقفية، خصوصا وأنه لازمه كثيرا وختم عليه عدة ختمات إفرادا وجمعا كما ذكر ذلك في فهرسته[6].
ـ وثانيهما : كونه من تلاميذ أبي الحسن علي بن منون الشريف الحسني المكناسي (ت بعد ٨٧٠ هـ) ، وقد ذكروا عنه أنه كان يعلم طلبته إعراب القرآن ويدربهم على وقوفه، وممن أخذ عنه ذلك أبو عبد الله بن غازي، حيث قال في فهرسته :"وتمرنت عليه في الفرائض والوثائق وإعراب القرآن وأوقافه واستفدت منه كثيرا"[7].
فهذان الأمران يبينان بجلاء اهتمام ابن غازي بالوقف وتلقيه له عن شيوخه، خاصة منهم أبا عبد الله الصغير وأبا الحسن ابن منون ، مما يرجح أن يكون تلميذه الهبطي قد أخذ الوقف المنسوب إليه عنه .
وقد لاحظ الدكتور وكاك أن عمل الصغير في وقفيته يختلف عن التقييد المعروف اليوم والمنسوب للهبطي في زهاء ٥٠٠ موضع[8] ،

---

[1] ـ مقدمة تحقيق وقف الهبطي ص ٣٩ ونقل في ص ٣٧ هامش ٦٠ عن الشيخ محمد المنوني رحمه الله ما يؤيد ذلك . وينظر أيضا قراءة الإمام نافع عند المغاربة [١٩١/٤ ـ ١٩٢، ٢٠٦ ـ ٢١٠]والوقف الهبطي أهم مياسم التلاوة القرآنية في المغرب للدكتور عبد الهادي حميتو ـ مجلة المجلس ، ص ٧٥ ـ ٧٦
[2] ـ نشر المثاني [٣٥/١].
[3] ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد الحجوي الثعالبي : ٢ / ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
[4] ـ استبعد ذلك الشيخ سعيد أعراب في القراءات والقراء بالمغرب ص ١٨٣ .
[5] ـ وهي نسخة الخزانة الناصرية بتمكروت تحت رقم ١٦٥٧ كتب عليها :"تقييد وقف القرآن عن الأستاذ محمد بن الحسن الملقب بـ"الصَّغَيِّر" . ينظر التعريف بهذه النسخة في دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية للأستاذ محمد المنوني ص ١٠٥ .
[6] ـ فهرسة ابن غازي ص ٣٦ ـ ٣٧ .
[7] ـ فهرسة ابن غازي ص ٨٥ .
[8] ـ مقدمة تحقيق وقف الهبطي ص ٩٥ هامش ١٣٥ .

كما لاحظ الباحثون أن بين بعض النسخ العتيقة للتقييد المنسوب للهبطي وبين النسخ المتأخرة اختلافا في طائفة من المواضع[١]، الأمر الذي يدل أن التقييد طالته يد التنقيح والتغيير،
ويجعل في نسبته بشكله الحالي إلى الإمام الهبطي من التجوز ما فيها، كما يجعل الحمل على الهبطي في ما ضعف من أوقافه لا يسلم من تجن وافتئات[٢] .
والعدد الإجمالي الذي استقرت عليه الصيغة النهائية للتقييد هو خمس وأربعون وتسعمائة وتسعة آلاف وقفة (٩٩٤٥)[٣]، وخالف في ذلك الشيخ سعيد أعراب فذكر أن مجموعه ٨٨٧٧ وقفة فقط، وخطأه في ذلك الدكتور وكاك[٤]. ونصف هذا العدد هو قوله تعالى : {والجلود ، ولهم مقامع من حديد} بسورة الحج[٥] . وقد نظم ذلك بعضهم بقوله :

عدد وقف الهبطي عند المقرئين عشْـــرة آلاف أقـــل ســـتين
ونصـــفه والجلـــود ياتـــال هـذا هـو الصـحيح فـي الأقـوال[٦]

وتدل قصة قدوم أبي عبد الله السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ[٧] من تلمسان إلى فاس ومناظرته للهبطي في شأن أوقافه أن ظهور وقف الهبطي وانتشاره بفاس وما إليها كان قبل متم القرن العاشر[٨]، وخلاصة ما ذكر في تلك القصة أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن يوسف السنوسي لما ورد من تلمسان على فاس اجتمع بالهبطي وناظره في هذا الوقف على جهة الاعتراض ،

---

[١] ـ ومنها نسخة خزانة أوقاف آسفي المتقدمة الذكر ، ففيها أوقاف لا توجد في التقييد الذي بين أيدي الطلبة اليوم، كما أن في التقييد أوقافا ليست فيها ، كما أن بحواشيها هوامش ملحقة فيها تعديلات ومراجعات. ينظر قراءة الإمام نافع عند المغاربة [٢١٢/٤ ـ ٢٢٢] ومقدمة تحقيق تقييد زقف الهبطي ص ١١٣ .
[٢] ـ قراءة الإمام نافع عند المغاربة [١٨٦/٤ ، ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، ٢٢١].
[٣] ـ ينظر مقدمة تحقيق تقييد وقف القرآن للهبطي ص ١١٤ والوقف الهبطي أهم مياسم التلاوة القرآنية في المغرب للدكتور حميتو، ص ٨١ .
[٤] ـ القراءات والقراء بالمغرب ص ١٩٧.
[٥] ـ رأس الآية ٢٠ من سورة الحج .
[٦] ـ البيتان من الأنصاص القرآنية التي يتداولها الطلبة بالمغرب ، والخمسة الناقصة في الإحصاء الوارد في هذين البيتين عن الإحصاء الذي ذكره الدكتور وكاك هي الخمس التي في سورة المومنون من الآية ٣٣ إلى الآية ٣٨ ، أولها :{مما تشربون} ثم {الخاسرون} ثم {مخرجون} ثم {لما توعدون} ثم {بمبعوثين} وفي وقفها اختلاف بين مناطق المغرب . ينظر مقدمة تحقيق وقف الهبطي ص ١١٦ .
[٧] ـ هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني التلمساني . ترجمته بتفصيل في البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم ص ٢٣٧ ـ ٢٤٨.
[٨] ـ قراءة الإمام نافع عند المغاربة [٢٠٧/٤] .

فيذكرون أنه لما اعترض على شيخه في الوقف على آية من سورة يونس كوشف بها في اللوح المحفوظ على ما اختاره الهبطي، فلم يسعه إلا التسليم له، وكان سبب إقبال الناس على ما قيد عنه من الوقف[1].
ثم لم يلبث هذا الوقف أن انتشر بسرعة فائقة في بلاد المغرب ليأتي على ما عداه من مذاهب الوقف التي كان معمولا بها عند المغاربة، يقول صاحب الأقنوم :

فصل وللهبطي وقف خالفا ببعض ما من الوجوه ضعفا
واختاره للأخذ من تأخرا قصرا على طريقه وشهرا
ومن لقينا ربما قد أخذا بالوقف في الآي ورب نبذا
وفي المقاري السبع حيث وقفوا فربما في ذي اختلاف خالفوا[2]

وقد وصف المكانة التي صارت لهذا الوقف في زمنه الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي فقال :"وبعد فالذي استقر عليه عمل القراء بالمغرب الأقصى فاس ومراكش وما والاهما من زمان أبي عبد الله الهبطي إلى زماننا هذا سنة ستين بعد المائتين والألف هو اعتماد ما قيد عن الهبطي المذكور، وهو قد قيد من ذلك باعتبار قول من أخذ من شيوخ المقرئين في الوقف والابتداء بمراعاة الإعراب والمعنى، وإن وقع فيما قيد عنه ما لا يخلو عنه البشر، لكن تلقاه قراء المغرب بالقبول، وعملوا عليه في التعلم والتعليم"[3] . وأشار إلى مثل ذلك الشيخ عبد السلام بن محمد المدغري في أرجوزته "تكميل المنافع" حيث قال :

واسلك طريق الهبطي في الأوقاف فإنه لصنعة الأرداف
سهل معين إذ به جرى العمل في غربنا ذا وبه الأدا حصل[4]

ولعل من أهم اسباب سرعة هذا الانتشار شدة الحاجة إلى مثل هذا الوقف للأسباب التي قدمناها في المقدمة، ولتمكنه من سد حاجة ملحة عند القارئ المغرب ما فتئ يحس بها ولا يجد لها سدادا في مذاهب الوقف الأخرى. ثم إن من أسباب اعتماد المغاربة لوقف الهبطي شغفهم بالنموذج

---

[1] ـ ذكر هذه القصة الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي في كتابه الأقراط والشنوف في معرفة الابتداء والوقوف (مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط برقم ١٩٥٣) كما ذكرها أيضا في كتابه المحاذي (مخطوط)، ونقلها الكتاني في سلوة الأنفاس [٦٧/٢ ـ ٦٨] وأعراب في القراءات والقراء بالمغرب ص١٨١ ـ ١٨٢.
[2] ـ الأقنوم في مبادئ العلوم لعبد الرحمن الفاسي : باب الوقف ، نسخة الخزانة العامة رقم ١٥٦ ك .
[3] ـ المحاذي : فصل في بيان مذاهب القراء في الوقف والابتداء (مخطوط خاص).
[4] ـ تكميل المنافع في الطرق العشرية للمدغري (مخطوط خاص).

المدني في كل مظهر من مظاهر التدين، ففي الفقه هم على مذهب مالك المدني وفي القراءة هم على قراءة نافع المدني، وحتى حين اختاروا من رواة نافع راويا مصريا اعتمدوا من طرقه طريق أبي يوسف يعقوب الزرقي المدني، وهم كذلك على مذهب أهل المدينة في الرسم والضبط وعد الآي وغيرها، فلا غرابة أن يكونوا مدنيين في الوقف، باختيار وقف الهبطي الذي ذكر الباحثون عنه أنه كان يتحرى مذهب نافع في وقف التمام[1]. هذه بعض أسباب ذلك الإقبال الكبير لغالب قراء المغرب على هذا الوقف الهبطي وإهمالهم ما عداه، وقد تضاف إلى ما تقدم أسباب أخرى، لكنها قد لا تصمد تحت محك النقد العلمي الجاد[2].

ويشير الأستاذ سعيد أعراب إلى أن مما ساعد على مزيد ترسيخ للوقف الهبطي في القراءة المغربية الخدمة التي قدمها له الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي وأنها خدمة لا ينساها له التاريخ "فأوفاه حقه وأوضح مقاصده"[3]، وذلك من خلال كتابه المحاذي الذي جعله على قسمين ـ كما تقدم ـ قسم في كيفية الجمع والإرداف وما يجوز فيه من وقف وابتداء ، والثاني في شرح وقوف الهبطي. لكن مما يلاحظ التأخر النسبي الذي طبع دخول وقف الهبطي إلى بلاد سوس[4]، إذ لم يدخلها ـ كما سيأتي في المبحث اللاحق ـ إلا بعد قرابة قرن من انتشاره في فاس وما إليها من حواضر شمال المغرب، ولعل ذلك يجد تفسيره فيما سيأتي تفصيله من المجابهة القوية التي واجهت مسيرة هذا الوقف نحو الجنوب والشرق من قبل أنصار القراءة اللمطية من خريجي الزاوية الناصرية. ثم إن هذا الوقف الهبطي قد حظي في العقود الأخيرة بخدمة سوسية أخرى جليلة، حين خص العلامة الفاضل الدكتور الحسن وكاك السوسي تقييده بتحقيق قيم قدم له بدراسة وافية، وذلك في رسالته لنيل دبلوم الدراسات العليا من دار الحديث الحسنية تحت إشراف الدكتور التهامي الراجي، ثم قدم للباحثين والمهتمين يدا بيضاء بطباعته للكتاب على حسابه الخاص طبعته الأولى سنة ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

---

[1] ـ ينظر القراءات والقراء بالمغرب ص ١٨٢ ومقدمة تحقيق وقف الهبطي ص ٧٢ ـ ٧٥ وقراءة الإمام نافع عند المغاربة [١٩٦/٤ ـ ٢٠٣].

[2] ـ من ذلك ما أشار إليه الأستاذ سعيد أعراب من العامل المعنوي المرتبط بصلاح نية الإمام الهبطي ما جعل مذهبه ينتصر "ويحمل طابع الخلود"، واستدل له بقصته المتقدمة مع الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت ٨٩٥ هـ). وتحمل تلك القصة في طياتها أيضا سببا آخر لانتشار هذا الوقف، وهو اعتقاد القراء بعد تلك القصة مطابقة وقوف الهبطي لما في اللوح المحفوظ، وهو ما عزاه ابن عبد السلام لشيخه عبد الرحمن المنجرة أن من أسباب انتشار هذا الوقف في المغرب اعتقاد بعض القراء صحة تلك المطابقة. المحاذي : فصل في بيان مذاهب القراء في الوقف والابتداء (مخطوط).

[3] ـ القراءات والقراء بالمغرب ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

[4] ـ مقدمة تحقيق تقييد وقف الهبطي ص ١٢٩ .

المبحث الثاني : دخول وقف الهبطي إلى البلاد السوسية : القنوات والجهود

ينسب مؤرخو سوس دخول وقف الهبطي إلى بلاد سوس وقبائل جزولة إلى الشيخ أبي عمران موسى بن ييبورك بن الحسن الوسكاري (ت ١١٠٨ هـ) دفين آيت فلاس بهشتوكة[١]. يقول الحضيكي :"وكان الصوابي -رضي الله عنه- يخبر بأن الرجل الصالح سيدي موسى الوسكاري أول من جاء سوس بهذا الوقف الهبطي"[٢].

وترجم له الحضيكي في طبقاته فقال :" موسى بن إبراهيم الوسكاري موسى بن إبراهيم، الأستاذ القارئ شيخ القراء . كان رحمه الله عالماً عاملاً صالحاً زاهداً ورعاً، تاليا لكتاب الله، معمرا لأوقاته بطاعة الله، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم. أخذ القراءات عن شيخ الجماعة سيدي إبراهيم بن سليمان الهشتوكي، وعن الأستاذ الأكبر سيدي محمد بن يوسف الترغي، وعن المقرئ الشهير ابن القاضي الفاسي وغيرهم. وأخذ عن شيخنا سيدي أحمد بن يحيي الرسموكي، وسيدي محمد بن إبراهيم والد سيدي عبد العزيز التزخي، وجماعة كثيرة غيرهم، وتوفي رحمه الله سنة ثمان ومائة وألف، وكان مولده يوم الجمعة سنة عشرين وألف"[٣].

كذا ورد في النسخة المطبوعة من مناقب الحضيكي أن الوسكاري أخذ عن الشيخ محمد بن يوسف الترغي، وقد وضعت كلمة "الترغي" بين معقوفين دلالة على أنها زيادة من نسخة أخرى ، وعلق المحقق عليها بالهامش فقال :" س : التزغي ، وهو خطأ" . فجعل المحقق على هذا الوسكاري الذي نص الحضيكي - كما تقدم في ترجمته - أنه ولد سنة ١٠٢٠ هـ تلميذا للشيخ أبي عبد الله الترغي (ت ١٠٠٨ هـ أو ١٠١٤ هـ) أخذ عنه القراءات!!، مع أنه ولد بعد وفاة الترغي باثنتي عشرة سنة أو بست سنوات. وهو ما يبين أن اجتهاد المحقق في قراءة الكلمة التي وضع بين المعقوفين لم يكن موفقا أو أن الدرك فيها على الحضيكي نفسه، ولعلها أن تكون مصحفة عن "التملي" لأن اسمه أيضا "محمد بن يوسف"؛ ولإمكان أخذ الوسكاري عليه ؛ لتأخر وفاته إلى سنة ١٠٤٨ هـ ، وعمر الوسكاري يومئذ ٢٨ سنة، وهي سن تمكنه من أخذ القراءات عليه كما ذكر الحضيكي.

---

[١] - ينظر في خلال جزولة [٣٦/٤] والقراءات والقراء بالمغرب ص ١٩٢ ومقدمة تحقيق تقييد وقف الهبطي ص ١٤٨.

[٢] - طبقات الحضيكي [١٠١/١] ونقله عنه السوسي في خلال جزولة [٣٦/٤] .

[٣] - طبقات الحضيكي [٣٨٥/٢] ترجمة ٥١٢.

لذا نجد الشيخ محمد المختار السوسي وهو يترجم للوسكاري لا يذكر شيئا عن أخذ الوسكاري عن الترغي ، بل يكتفي بذكر أخذه عن ابن القاضي (ت ١٠٨٢ هـ) خاصة، ونص كلامه في المعسول :"وهؤلاء الوسكاريون المنسوبون إلى (أكي وأسكار) فوق أسكار لديهم مشجر نسب فيه أن جدهم موسى هو المشهور بين كبار القراء، وهو المذكور في التاريخ أنه أول من أدخل وقف الهبطي إلى جبال (سوس) وقد وقف أمام انتشار ذلك الوقف في القرن الثاني عشر الشيخ أحمد الصوابي، وهذا هو المتداول عند أهل أسكار الآن، وفي التاريخ أن موسى توفي ١١٠٨هـ، وأنه موسى بن إبراهيم، وقد رأيت من قال فيه : موسى بن ييبورك بن الحسن، وهذا هو الصحيح"، ثم ذكر ما يشهد لذلك في إجازة للوسكاري كتبها له أبو زيد عبد الرحمن بن أبي القاسم ابن القاضي وفيها :" إن الطالب النجيب الحافظ اللافظ المجود، الأديب أبا عمران موسى بن ييبورك بن الحسن السوسي الهشتوكي، كان ممن تردد علي، وتوخى المثول بين يدي، واعتمد في قصده على ما لدي فقرأ علي القرآن العظيم ختمتين جمع فيهما بين قراءات الأئمة السبعة المشهورين..."، ثم قال :" هذا هو موسى الوسكاري، ومشهده عليه بيت تقام عليه حفلة سنوية من قبيلة (أيت فلاس) ومن (أيت تيدلي) أهله الأصليين المسمين الثقافيين، ومن عندهم انتقل إلى (أكي واسكار) وينتسبون إلى الشرف ويقولون : إنهم من إخوان أهل (تودما) الذين منهم أيضاً (آل بوشكر) الأكماريون"[1].

إن التسليم لما تذكره هذه المصادر من نسبة إدخال وقف الهبطي لسوس إلى أبي عمران الوسكاري يجعلنا نرجئ دخول هذا الوقف إلى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، أي إلى ما بعد سنة ١٠٤٩ هـ ، وهي السنة التي أجاز فيها ابن القاضي الوسكاري بفاس كما في الإجازة التي أورد نصها صاحب المعسول، ولا ندري كم بقي الوسكاري بعدها يطلب العلم بفاس أو بغيره قبل أن يرجع إلى سوس ويدخل معه وقف الهبطي ضمن ما جمعه في رحلته من علوم وفنون، وهذا يعني تأخر دخول هذا الوقف إلى سوس بأزيد من قرن عن موت صاحبه الهبطي المتوفى سنة ٩٣٠ ه.

ونحن نملك من المعطيات التاريخية ما يحملنا على عدم التسليم لما ذكرته المصادر التاريخية السالفة الذكر من نسبة أولية إدخال وقف الهبطي إلى سوس لأبي عمران الوسكاري ، بل نرى أن دخوله لسوس كان قبل ولادة الوسكاري بزمن مديد ،

---

[1] - المعسول [١٢٦/٨ - ١٢٧] .

وذلك على يد الإمام أبي عبد الله الترغي ورجال مدرسته خاصة منهم الشيخ محمدا المرابط البعقيلي صاحب تقييد الوقف عنه، وذلك إبان استقرار الشيخ أبي عبد الله الترغي بتارودانت مؤدبا لأبناء الخلفاء السعديين ، وهذا يمكننا من القول : إن وقف الهبطي دخل سوس قبل نهاية المائة العاشرة للهجرة ، بل نستطيع أن نحدد الفترة التي دخل فيها بما قبل سنة ٩٧١ هـ وهي سنة وفاة الشيخ أحمد بن موسى السملالي التزروالتي الذي تقدم أن الشيخ الترغي زاره متبركا به مع تلميذه البعقيلي بتزروالت . وهذا لا يمنع أن يكون لأبي عمران الوسكاري مشاركة في هذا التمكين لوقف الهبطي بسوس بعد دخوله. والمعطيات التاريخية التي جعلتنا ننسب إدخال وقف الهبطي إلى سوس للإمام الترغي عدة، أهمها:

١ ـ أن وقف الهبطي إنما قيد ـ كما تقدم لنا ـ عن الإمام أبي عبد الله الترغي على يد تلميذه السوسي محمد المرابط البعقيلي وهو ممن درس عليه بعاصمة سوس تارودانت، فهو بالتالي أولى بنشر هذا الوقف وبأن تنسب إليه وإلى شيخه الترغي أولية إدخاله هذا إلى سوس.

٢ ـ أن الوسكاري كما في ترجمته المتقدمة عند الحضيكي لا يعدو أن يكون أحد تلاميذ تلاميذ أبي عبد الله الترغي ، إذ قرأ على شيخ الجماعة إبراهيم بن سليمان الهشتوكي أحد الآخذين عن الترغي[١].

٣ ـ دخول أبي عبد الله الترغي ـ كما تقدم ـ لبلاد سوس، واستقراره مدة بقاعدتها تارودانت حيث كان يدرس أبناء الملوك السعديين كما تقدم في ترجمته في المبحث السابق، وفي تارودانت أخذ عنه طائفة من علماء سوس كالمرابط البعقيلي صاحب التقييد، ومحمد بن أحمد بن داود ناسخ التقييد في إحدى نسخه المحفوظة بأوقاف آسفي كما تقدم ، وتاريخ كتابته تلك النسخة هو سنة ١٠٦٣ هـ ، أي بعد موت الترغي بـ ٤٣ سنة إن كانت وفاته سنة ١٠١٤ ه[٢]، أو بعد موته بـ٤٨ سنة إن كانت وفاته سنة ١٠٠٩ هـ[٣]، مما يشير بأن هذا الوقف أخذ طريقه نحو الانتشار بسوس في هذا التاريخ القريب من وفاة الترغي وأنه نال اهتمام قراء سوس به.

---

[١] ـ ينظر طبقات الحضيكي [١٣٠/١].

[٢] ـ كما عند الحضيكي في الطبقات [٤٤/٢ـ ٥٤] .

[٣] ـ درة الحجال : ٢ / ١٦٤ ترجمة ٦٣٨ . وانظر في ترجمته أيضا نشر المثاني للقادري ١ / ٧٨ وصفوة من انتشر لليفرني ص١٣٠ والإعلام للمراكشي [١٩٢/٥]

٤ ـ وفرة الآخذين من أهل سوس عن أبي عبد الله الترغي ممن تصدروا للإقراء بعده بسوس وغيرها[١]، مما يزكي القول بأن أبا عبد الله الترغي ورجال مدرسته هم الذين أدخلوا هذا الوقف الهبطي إلى بلاد سوس وروجوا له فيها . وتقدم لنا قول أبي زيد التمانارتي عنه : "شدت إليه الرحال لأخذ القراءة عنه ، وتزاحمت ببابه الركبان ، وعنه انتشرت القراءة بالمغرب بسائر طرقها"[٢]

٥ ـ تجوال أبي عبد الله الترغي في بلاد سوس، وتنقله بين قبائل جزولة مما يتيح لأهل سوس التعرف على هذا الشيخ المقرئ الكبير والاقتباس من علمه وروايته، فقد تقدم ذكر رحلته إلى تازروالت بتكليف من السلطان الغالب بالله ولقائه للشيخ أحمد بن موسى السملالي[٣]، وكذا تقدم ذكر زيارته لسيدي عبد الرحمن بن علي الحامدي (ت ٩٨٤ هـ) في بلاد جزولة[٤].

كل هذه العوامل تسهل علينا القول بأن أولية إدخال هذا الوقف الهبطي كانت على يد أبي عبد الله الترغي إبان مقامه بتارودانت وشارك في التمكين له بسوس رجال مدرسته لاسيما منهم مقيده عنه تلميذه محمد بن أحمد المرابط البعقيلي السوسي. وذلك لا يقصي بحال جهود الشيخ أبي عمران موسى بن ييبورك بن الحسن الوسكاري الذي نسبت إليه المصادر السوسية تلك الأولية.

وغني عن البيان أن البلاد السوسية لم تكن قبل اشتهار الوقف الهبطي فيها خلوا من مذهب في الوقف، بل كان فيها مذهب الوقف السني الذي دخلها عبر الطلبة الذين تلقوا القرآن عن شيوخ المدرسة الناصرية الذين يأخذون في القراءة بالطريقة اللمطية الفلالية الدرعية التي يسميها الحضيكي بالقراءة السنية القديمة، فيقول في ترجمة الشيخ أبي العباس الصوابي أشد معارضي أوقاف الهبطي :" وكان ـرحمه اللهـ يبالغ في إنكار هذه القراءة الفاسدة، وجَدَّ كل الجِدِّ في رد الناس ورجوعهم إلى قراءتهم القديمة، وهي التجويد والترتيل، فمنهم ومنهم". ثم يقول الحضيكي :"ولقد وجدنا بالجامع الأزهر بمصر مجوِّدًا يُجوِّد القراءة القديمة التي كان ـرحمه اللهـ يقرؤها ويُرْشِدُ الناس إليها.

---

[١] ـ من مشاهيرهم الشيخ المقرئ محمد بن علي الكفيف الأنسوي الجزولي الرحالي (الفوائد الجمة ص ٤٩ والحضيكي[٢٩٠/١ ـ ٢٩١]) والشيخ إبراهيم بن سليمان الهشتوكي(طبقات الحضيكي [١٣٠/١]) والشيخ محمد بن يوسف التملي السوسي المراكشي (الحضيكي [٢٩٢/١]) وموسى بن إبراهيم الوسكاري(الحضيكي [٣٨٥/٢]).

[٢] ـ الفوائد الجمة للتمانارتي : ١١٢ .

[٣] ـ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للمراكشي [٢٤٧/٢] ترجمة ١٩٩.

[٤] ـ مناقب البعقيلي ص ٢٩ ـ ٣١ والفوائد الجمة ص ٣٥ وطبقات الحضيكي [٥٤٧/٢].

وهذا شيخ وقته وإمام عصره سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي قد تنبه لذلك، فصار يَحْمِلُ الناسَ على القراءة الصوابية السّنّية القديمة، وألَّفَ على خطإ هذه الحادثة وفسادها"[1].

كما كان في سوس أيضا من لا يأخذ بالوقف السني ولا بالوقف الهبطي، حكى ذلك الشيخ أبو زيد التاغارغارتي الأوزالي (ت١٢٧٨ هـ)[2] عن شيخه سيدي عبد الله بن علي الإيرغي الجرفي[3] ـ وهو من أهل القرن الثاني عشر الهجري ـ أنه كان لا يقرأ لا بالوقف السني ولا بالوقف الهبطي أصلا، اقتداء بأشياخه[4].

---

[1] ـ طبقات الحضيكي [١٠١/١].

[2] ـ ترجمته في المعسول [٢٢٢/١٨].

[3] ـ ترجمته في المعسول [٢٢٥/١٨].

[4] ـ الدراسات القرآنية في سوس للباحث محمد الصالحي ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤ نقلا عن مختصر طبقات الشعراني للتاغارغارتي : القسم الثالث (لوحة ٤٠) ، وذكره صاحب المعسول [٢٢٦/١٨].

المبحث الثالث : مواقف علماء سوس من وقف الإمام الهبطي وما ثار حوله من سجال

ما إن ظهر الوقف المنسوب إلى الشيخ أبي عبد الله الهبطي على ساحة الإقراء في المغرب وأخذ طريقه إلى الانتشار في أرجاء المغرب حتى تفرق أئمة القراء في شأنه إلى موال مؤيد يعتمده ويقرئ به ويؤلف في نصرته، بل قد يغالي فيه إلى درجة تقديسه وإلزام القرأة به وعده من جنس الرواية التي لا يجوز التصرف فيها بزيادة أو نقصان[1]، ونابذٍ مُعارضٍ، ينهى عنه الطلبة ويكثر الحط منه ومن مؤلفه ويرى ضعف كثير من وقوفه، بل لا يرى جدوى في اعتماد القراءة به ويحمله جريرة كثير من أخطاء الأداء والتلاوة التي دخلت على القراءة المغربية[2]. ولم يكن القطر السوسي استثناء من هذا الواقع، إذ انقسم فيه المشايخ إلى مؤيد ومعارض، مما يفسر تأخر دخول هذا الوقف إلى بلاد سوس واستقراره فيه كما سبق الإلماع إليه .

أ ـ <u>المعارضون لوقف الهبطي ومسوغاتهم</u> في ذلك.

لا شك أن وقف الهبطي حين دخل سوس على يد من تقدم، لم يجدها خلوا من مذاهب أخرى في الوقف ، بل سبقته إليها ـ كما تقدم ـ مذاهب أخرى في الوقف، أهمها الوقف على رؤوس الآي المسمى عند أصحابه بـ"الوقف السني" الذي تبع فيه أهل سوس مدرسة الشيخ أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي (ت ١٠٨٥ هـ) الذي كان يتزعم الدعوة إلى هذا النوع من الوقف ونبذ ما عداه. وقد وجدت هذه الدعوة صداها في القطر السوسي على أيدي ثلة من مشايخ الإقراء،

---

[1] ـ ذكر هذا الموقف عن بعض قراء المغرب الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي في كتابيه :"القول الوجيز في قمع الزاري على حملة الكتاب العزيز" ص ٧١ فما بعدها و"إتحاف الأخ الأود المتداني بمحاذي حرز الأماني" في فصل : بيان مذاهب القراء في الوقف والابتداء (مخطوط خاص) .

[2] ـ وممن انتقد وقف الهبطي الشيخ أبو عبد الله محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي (ت ١١٠٩ هـ) في رسالة "الدرة الغراء في وقف القراء"، ولعله أول من ألف في ذلك، والشيخ أحمد بن عبد العزيز السجلماسي (ت ١١٦٥ هـ) في رسالة "عرف الند في أحكام المد" والشيخ أحمد الصوابي السوسي (ت ١١٥٩ هـ) كما سيأتي في أثناء هذا المبحث . ومن المتأخرين الشيخ عبد الله بن الصديق في رسالة "منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي" ، قد بالغ هذا الشيخ في استهجان هذه الوقوف والحط من صاحبها حتى وصفه ـ جهلا وبغيا ـ بأنه "لا يعرف النحو" و"لا يرجع في موقوفه إلى قاعدة من علم العربية أو القراءات أو التفسير" وأنه لا يدرك ما يدركه من قرأ "الآجرومية" و"أنه لا يرجع إلى قاعدة وإنما يرجع إلى ما ظهر له" ، وكل هذا تحامل تناسى فيه الشيخ ابن الصديق ما اطبق عليه المترجمون للهبطي من وصفه ـ كما تقدم في المبحث الأول ـ بالإمامة في عدة فنون على رأسها النحو والعربية. ينظر منحة الرؤوف ص١١ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤ . وممن سجل انتقاده لهذا الوقف ودعا لتجاوزه وتطويره أسوة بما شهده من ذلك الوقف القرآني في البلاد المشرقية الدكتور الحسن وكاك في تقديمه لكتاب تقييد وقف القرآن الكريم للهبطي ص ١٥١ .

خاصة منهم الذين تكونوا في المدرسة الناصرية بتمكروت[1] وعلى رأسهم الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله الصوابي (١٠٩٥ ـ ١١٤٩ هـ)[2] أحد تلاميذ الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي الزينبي (ت ١١٢٩هـ)[3].

يسجل الحضيكي ـ تلميذ الشيخ الصوابي ـ شدة احتذاء الشيخ الصوابي بمذاهب أشياخه من أهل درعة فيقول :"كان ـ رضي الله عنه ـ آية من آيات الله في الحرص على إقامة الدين وإحياء السنن وإخماد البدع ونفي المناكر شديد الغيرة في ذلك كبير الهمة ....سالكا في ذلك مسلك أشياخه أهل تمكروت بدرعة"[4].

إن هذا المنهج الناصري الذي تربى عليه الشيخ الصوابي جعل منه محتسبا في تغيير المنكرات ومحاربة البدع، ومن المحدثات التي رآها منكرا وتصدى لها وبالغ في إنكارها هذه القراءة المحدثة الفاسدة التي تعتمد وقوف الهبطي. قال الحضيكي بعد بيان حرص الشيخ الصوابي على محاربة المحدثات والبدع :"كان ـرضي الله عنهـ لحرصه على إحياء السنة والدين غوّاصاً في أموره، فطناً نبيها لدسائس النفوس، ومكر الشياطين وما استرقوه من الدين وأسَرُّوه، وأضلوا عنه العباد، وغطوه بالتمويه، فانتبه ـرضي الله عنهـ له؛ فمن ذلك قراءة الناس بالوقف الهبطي "القرآن العظيم" كتاب ربهم وكلامه وأصل دينه، قد عمد الشيطان ـلعنه اللهـ لذلك، فصرفهم عن تجويده الواجب المتعين، والترتيل الذي أمر الله به والتدبر فيه، والتخشع والسكينة على كل قارئ لكتاب الله، ووعد عليه الكريم سبحانه جزيل الثواب والنعيم المقيم، فمكر الشيطان

---

[1] ـ من أعلامهم بسوس الشيخ محمد بن علي بن إبراهيم الهوزالي (ت ١١٦٢ هـ) ، من تلاميذ الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، ألف كتاب "تنبيه الخلان على ترك البدع والعصيان" شرح فيه منظومة له في النهي عن البدع والمحدثات ، وأهداه لشيخه أحمد بن ناصر الدرعي، والهوزالي من من أقران الصوابي والهلالي تلميذي الشيخ احمد بن ناصر . ترجمته في طبقات الحضيكي [١١٧/٢ ـ ١١٨] وسوس العالمة ص ١٩١ .

[2] ـ هو الشيخ أحمد بن عبد الله الصوابي السوسي العالم العامل المحدث الفقيه النحوي اللغوي ، خاتمة محدثي سوس ، ولادته عام ١٠٩٥ هـ ، وتلقى العلم على شيوخ الزاوية الناصرية خاصة شيخها أبا العباس أحمد بن ناصر الدرعي ، ودرس بمجموعة من مدارس سوس : تيوت ، سيدي مزال بهشتوكة ، ابن جرار، بوكرة برسموكة، واستقر بمدرسته المنسوبة إليه بماسة مدرسا بها إلى وفاته سنة ١١٤٩ هـ ، ودفن بأسغركس بمقبرة سيدي يبورك بن حسين بهشتوكة. خصه بترجمة مطولة تلميذه الحضيكي في مناقبه (طبقاته) [٩٥/١ـ ٩٧] وفي رحلته الحجازية ص ٥٩ والشيخ محمد المختار السوسي في خلال جزولة [٣٣/٤] والمعسول [٦٣/٨] ورجالات العلم العربي ص ٦٢ والإكراري في روضة الافنان ص ٣٣٨. وينظر إجازة شيخه احمد بن محمد بن ناصر الدرعي له في كتاب في خلال جزولة [٣٩/٤].

[3] ـ أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن ناصر، أبو العباس الدرعي ، من فضلاء المغرب وصلحائه. له رحلة للحج سجل أحداثها في كتاب الرحلة الناصرية ، كان شديد الشكيمة على أهل البدع، قوالا للحق. ترجمته في صفوة من انتشر ص ٢٢١ وفهرس الفهارس [٦٧٧/٢] والإعلام للمراكشي [٣١١/٤] والأعلام للزركلي [٢٤١/١].

[4] ـ طبقات الحضيكي [٩٦/٢].

الرجيم واحتال على الناس حتى منعهم من ذلك، وأوقعهم في المحظور الواضح، والحرام الصريح، والمعصية الكبيرة، عياذاً بالله من قصر الممدود، ومد المقصور، وإسقاط الحروف والحركات وتبديلها وتغييرها { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }"[1].

إن هذه المؤاخذات على هذه القراءة المحدثة هي ما جعل الشيخ الصوابي ـ كما يحكي عنه تلميذه الحضيكي ـ يجد كل الجد في رد الناس ورجوعهم إلى قراءتهم القديمة ، وهي التجويد والترتيل ، وكان ـ رحمه الله ـ ينهى طلبته وأولاده أن يقرأوا الحزب الراتب وأن يجودوا بوقف الهبطي للمتعلمين الذين لم يقرأوا بالقراءات؛ ويرى أنه لا يجود به إلا لمن يردف بالقراءات[2].

وبناء على ذلك فإن الشيخ الصوابي سيحمل لواء حرب شعواء على وقف الهبطي في البلاد السوسية، ويقاومه بقلمه ولسانه، فهاهو حين يعود من رحلة الطلب بالزاوية الناصرية ينشئ لنفسه ـ بعد تنقل بالشرط في عدة جهات من سوس ـ مدرسة بأكدال المنسوب إليه بماسة[3]

---

[1] ـ الطبقات [٩٧/٢].

[2] ـ الطبقات [١٠١/٢].

[3] ـ هذه المدرسة الصوابية العتيقة بأكدال ماسة كانت بعد مؤسسها الشيخ أحمد بن عبد الله الصوابي مركزا علميا مهما في سوس تخرج فيه مجموعة من علماء المنطقة أمثال الشيخ أبي العباس أحمد الورزازي دفين تطوان (ت ١١٧٩ هـ) الذي تولى التدريس أيضا بها إلى جانب الشيخ الصوابي، والشيخ الحضيكي تلميذ مؤسس المدرسة وصاحب الطبقات والمناقب والشيخ أحمد بن إبراهيم بن محمد الأدوزي ومحمد بن أحمد التاسكاتي الإيلالني والعلماء المرزكونيين . وقد تولى تسيير شؤون المدرسة بعد وفاة مؤسسها الصوابي بنته رقية يساعدها في ذلك زوجها أبو عبد الله محمد بن عبد الله المرزكوني (ت بعد ١١٨٠ هـ) ـ وهو أيضا ممن تخرج على الصوابي ـ إلى أن توفيت سنة (١١٨٥ هـ) ، وقبيل وفاتها سلمت مقاليد المدرسة إلى أبي عبد الله محمد التاكساتي (ت١٢١٤ هـ)- وهو أحد تلاميذ الحضيكي ومن الشيوخ الكبار، فسار على نهج الصوابي في الدعوة إلى الله، ومحاربة الجهل والضلال، وهو الذي أثار حمية الناس، ودفعهم إلى محاربة الدجال (أبي أحلاس)، الثائر بـ (آيت باعمران)، فطاردوه- بعد أن أمر أمره- حتى لقي حتفه، ومات شر ميتة، وعندما زار السلطان المولى سليمان قبائل الصحراء، عرج على رباط ماسة، وشكر التاسكاتي على موقفه النبيل، ودفاعه عن وحدة البلاد؛ وليس ببعيد أن يكون أنعم عليه، وأصدر ظهيرا بتوقيره واحترامه .وتولى أمر المدرسة بعد التاسكاتي تلميذه أبو العباس أحمد بن محمد المرزكوني سبط الشيخ الصوابي (توفي بعد سنة ١٢١٦ هـ) وكان كبير القدر عظيم الشهرة، ثم وليها بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن أحمد المرزكوني (ت ١٢٨٠هـ).وقد كان من العلماء البارزين، والشيوخ المعتبرين، أدرك شأنا عظيما في زمنه؛ وهو الذي زاد في المدرسة زيادات مهمة، وأدخل عليها إصلاحات جذرية؛ اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن، فأنعم عليه، وأصدر ظهيرا بتجديد التوقير والاحترام لآل المرزكوني، مؤرخا بـ ٢٣ محرم (١٢٦٠هـ)، وكان له اتصال بالقائد الحاج عبد الله بن عبد الملك الحاحي، ثم صار أمر المدرسة بعده في أيدي أولاده وأحفاده إلى أن انقطع العلم منها في آخر المائة الرابع عشرة للهجرة . وقد زارها مؤرخ القطر السوسي الشيخ محمد المختار السوسي وتحدث عنها وعن تاريخها حديثا طويلا ختمه بقوله :"وقد انقضى اليوم العلم فيهم فغربت شمس الزاوية ... وقد تركوا التدريس في الزاوية منذ أزمان، ومالُ الزاوية بيع كله، فدخلتُ الزاوية وآثارها في خبر كان". ينظر خلال جزولة ٤٦/٤ ـ ٥٠ والمعسول ٢٩٢/٥- ٢٩٤، والميثاق س ١٠، ع ١٦. والمدرسة القرآنية بالصحراء المغربية في العصر العلوي لسعيد أعراب ـ القسم ١ : دعوة الحق : العدد ١٦٨ . ولم يبق من المدرسة اليوم إلا مسجدها ومقبرتها القديمة . ينظر المدارس العتيقة بسوس لعمر المتوكل الساحلي [٩٧/٣]. وقد بنيت حديثا مدرسة للتعليم العتيق تحمل اسم "مدرسة سيدي أحمد الصوابي " بجوار سوق الثلاثاء بماسة، وتؤوي في جنباتها مجموعة من

تقوم على تعليم التجويد والأداء السليم على ما عليه الأخذ بالمدرسة الناصرية، محاربة القراءة المنحرفة، ويؤلف في الرد على وقف الهبطي رسائل وأجوبة، ويبعث بمكاتبات لأعيان وقته وقرائهم وفقهائهم ينهاهم عنه[1] .

يقول الحضيكي :" وكان -رضي الله عنه- كتب لأعيان وقته وقرائهم وفقهائهم، وشافههم مراراً في شأن هذه القراءة المحدثة الممنوعة، وبين لهم مواضع الخطإ فيها، فلم يوفقوا لموافقته إلا قليلاً ولا انتبهوا لما انتبه إليه رحمه الله"[2].

ومن رسائله في ذلك ما نقله تلميذه الحضيكي في مناقبه، وسأورده على طوله لما فيه من عرض للمسوغات التي دفعت زعيم هذا التوجه المعارض الشيخ أحمد الصوابي إلى اتخاذ هذا الموقف، قال الحضيكي رحمه الله :"ونص كتاب منها إلى شيخنا إمام وقته أبي العباس العباسي[3]: هذا، وإني ذكرتُ لهم هذه القراءة الحادثة التي خالف فيها الأحداث من هذا الجيل أهل الجيل المتقدم، واختل نظام الهجاء على أهله، وفَسُدَ عليهم ضَبْطُ ساكنه ومتحرِّكه، وتمييز مفتوحه من غيره من مضمومه ومكسوره وغيره منهم، وموضعُ وجودِ حَرْف العِلَّة من موضع فقده. وسموا ذلك كله وَقْفاً.

فتراهم إذا قيل لهم: هلا قرأتم الواوين من { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ } كالألفات الثلاثة قبل، قالوا: ما تأمرنا به قياس، والقراءة لا يدخلها قياس، وإذا قيل لهم: ما للهمزة في { أَئِذَا مِتْنَا } ؟ نص الناس على أنها بين بين، قالوا: إن العرب قالوا: «هَرَقْتُ الماء وهرجت الدابة» ، ففروا إلى القياس النحوي بل للتنظير بجزئيات خارجات حتى عن قياسه. وقد أنكروا القراءة بالقياس مطلقاً قِرائي ونحوي، ثم خرجوا إلى امر خارج عنهما بعد خروجه عن الرواية إجماعاً، وقلتم وقتئذ: الظاهر الجواز، ولم يطمئن له صدري، ورأيت أني في صورة المعنِّت لهم، فنويتُ أن أذكرهم بذلك في مجلس آخر ووقت آخر.

طلاب العلم الشرعي بإشراف الفقيه الشيخ عياد فنادي، وقد انخرطت منذ سنة ٢٠٠٧ م في البرنامج الجديد للتعليم العتيق الذي تبنته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مؤخرا.

[1] - انظر طبقات الحضيكي [٩٨/١] والقراءات والقراء بالمغرب ص ١٩٠ .

[2] - الطبقات [٩٨/١] .

[3] - هو أحمد بن محمد بن محمد العباسي السملالي ، أخذ عن أبيه وعن شيوخ تمكروت وأبي عبد الله الصغير الإفراني وعن غيرهم من شيوخ مراكش ، توفي سنة ١١٥٢ هـ . ترجمته في طبقات الحضيكي [١٠٢/٢] ترجمة ١٠٨ والإعلام للمراكشي [٣٧٧/٢] والمعسول [٤١٦/١٨].

وقد بعثت إليكم أيها الثلاثة كتاباً ولم أر له جواباً ذكرت به بعض ما أتحير به، ورأيت أن تلك القراءة خارجة عن قانون المصحف العثماني، وأنه لا يجوز سماعها فضلاً عن قراءتها، وأن هذا الحين هو الذي قيل فيه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه»، وأن ما يسميه متعاطي القراءة في هذا الزمان وقفاً إنما هو إيهام وإلباس، وإلا فلا وقف ولا وصل، وقد رأيت أنكم لَهُم الركن الأعظم الذي يستندون إليه في هذا الوقت، فما دمتم في الوقت اتخذوكم حجة!

ولقد وددت لو أبديت هذا الأمر في حياة والدكم رحمه الله، ولو قَدَّرَ هذا الأمر لنصرني نَصْرًا مُؤَزَّراً، إذ هو أدرك زمان وفور القراءة على وجهها، إلا أنه ـ رحمه الله ـ لم يُنَبَّه، ولو نُبِّهَ لانتبه بأدنى تنبيه، لله دَرُّهُ مِنْ رَجُلٍ ما أَقْوَمَهُ بالحق إذا تَبَيَّنَ، غير خائف في الله لومة لائم، فنسأل الله الكريم أن يرحمه وأن يغفر له مغفرة تحيط بجميع هفواته، وإذا أردتم أن تعرفوا أنّ أُسَّ ما يدعونه من الوقف لا حقيقة له، إنما هو فساد توصل به لفساد، فانظروا عبارة "الإتقان" في نوع الوقف، فستجدونه فَرَّقَ بين السكت والوقف والقطع، وستجدون فيه أن السكت ليس بوقف.

وقال أبو زيد ابن القاضي في "شرح البرية": وإن لزمت فيه أحكام الوقف، قلتُ: ويدل عليه ما يَذْكرونه من قاعدة سَكْتِ حمزة بن حبيب، وبعضه في وسط الكلمة الرسمية مثل سكوته على "أل" من الآخرة والأرض، ولو كان الإسكان والسكوت وقفاً للزم جواز الوقف في وسط الكلمة، والتالي باطل، والمقدَّم مثله.

وإذا بطل أن يكون السكون والسكوت وقفاً، فأنَّى يكون السكوت وحده والسكون بعد حذف صلة الهاء مثلاً من ياء أو واو أو إبدال التنوين من نحو { عِوَجًا } و { عَلِيمًا } أَلِفًا وَقْفًا دون سكوت، وإذا جاء السكون الذي يقصدون أن يكون بمجرده وقفاً، فإن محله يحرِّكونه تحريكات الهمزة، وتحذف هي مثل: { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ } ، فالوقف عندهم هنالك هو أن يزيل فتحة اللام وينقل إليها حركة الهمزة.

ومثل: { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ }.

فالوقف هو حذفٌ كحذف كَسْرَة الهاء، ونقل الحركة التي تستحقها همزة وصل في الابتداء إليها وهي الضمة،

وقس عليه:{أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا} ، { لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اَللهُ يَعْلَمُهُمْ } ، وتجدونهم يجعلونه كضمير التثنية{ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنَّ الَّذِينَ } ، { وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي } ، { لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ }،{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ أَدْخلوهَا }

، إلى غير ذلك مما يفوت الحصر، وَقَعْتَ في المكابرة، والسلام عليكم من قلق وعجلة".

ثم قال: "انعطاف، وفي شرح أبي زيد ابن القاضي على "الدرر اللوامع" ما نصه: فائدة: قال في "الدر النثير": اعلم أن لأحرف المد في أنفسهن مَدَّاتٍ تابعات للحركات المجانسة لهن، فإذا قلت: "قال"، مَكَّنْتَ الصوتَ بين فتحة اللقاف واللام بقدر ما لو قطعْتَ بينهما بحرف متحرك مُمَكَّن الحركة، مثل: "قَبِل" ومثل "قَتَل"، وهكذا الواو والياء، انتهى.

انظروا -رحمكم الله- أين تمكين الصوت بين فتحة القاف والام قَدْرًا مَّا عند قولهم: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ }؟ أم أين تمكينه بين كسرة الذال والنون من { الذين } ؟ أم أين تمكينه من ضَمَّةِ الجيم والنون؟ بل من لم يعرف ذلك من خارج لايعرفه من صوت المتلفظ به ولذلك كثر التباس مَحَالِّ حروفِ العِلَّة على مَنْ لم يمارسها، فتصير عنده بمنزلة زوائد الملحَق التي لا تثقْرأ لا وَصْلاً ولا وَقْفاً، مثل الألف الزائدة بعد واو الجمع في الفعل، مثل: خرجوا وقعدوا، من لم يعرفه مِنَ المتلفَّظ به!

وتُشْبِهُ هذه القراءةُ الشِّعْرَ من حيث تمكين الصوت في بعض حروف المد دون بعض، مثل: { وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ } ، فإنَّ قارِئَهُم يمكِّن الصوتَ بعد الفتحة من { قالوا } دون الواو بعد ضمة لامه، ودون الواو التي بعد اللام التي في { قلوبنا } ، ويمكِّنه على "نا" من {قلوبنا} إن وقف على { غلف } لا إنْ وَصَلَ بما بعده، وهذا سبيل الشعر يمكَّن فيه الصوت على بعض الحروف التي وجد حرف اللين السكون بعض دون بعض، وسبب الترجيح هنالك رعي اللحن، وانظر فما سبب الترجيح هنا لعله كذلك، والسلام.

والكلام أكثر من هذا لولا القلق، ولا أدري ما سبب احتباس الجواب الذي بعثناه أولاً، وقد بلغني أنه بلغكم، فإن كان لا يستحق الجواب فجوابه إهمال، ولكن أن يتلطف بمملیه المسكين حتى يقلع عن جهله، فإن تعذر بعد التلطف فَطَلَبُ إقلاعه من طلب المحال، وهو العذر للمهمل، والسلام من مجل قدركم عبيدكم خسيس العبيد إن لم يتداركه الله بغفرانه، أحمد بن عبد الله الصوابي، كان الله له"[1].

---

[1] - الطبقات [٩٨/١ -١٠١].

ويظهر مما تقدم من كلام الشيخ الصوابي أنه يبني موقفه الرافض لوقوف الهبطي على أن هذا الوقف "ينافي الترتيل المطلوب"[1]، وأن الشيطان ـ لعنه الله ـ قد عمد بهذا الوقف إلى الناس "فصرفهم به عن تجويده الواجب المتعين، والترتيل الذي أمر الله به والتدبر فيه، والتخشع والسكينة على كل قارئ لكتاب الله، ووعد عليه الكريم سبحانه جزيل الثواب والنعيم المقيم، فمكر الشيطان الرجيم واحتال على الناس حتى منعهم من ذلك، وأوقعهم في المحظور الواضح، والحرام الصريح، والمعصية الكبيرة، عياذاً بالله" . ومن تجليات ذلك ما لاحظه على تلاوات القارئين بهذا الوقف من الهذرمة وأخطاء الأداء ، التي هي من "المحظور الواضح، والحرام الصريح، والمعصية الكبيرة عياذاً بالله، من قصر الممدود، ومد المقصور، وإسقاط الحروف والحركات وتبديلها وتغييرها { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }"[2].

والشيخ كان ديدنه ـ كما يحكي عنه تلميذه الحضيكي ـ ترتيل القرآن، ويربي الصبيان ويعلمهم ترتيله، وينهاهم عن الهذر المخل بالواجب، ويروم ـ رحمه الله ـ أن يحمل أهل عصره على تلك القراءة ويحاوله، ولم يقدر بعد المعالجة والمراودة والمعاودة أعواما ذوات العدد، {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى}[3].

لكن موقف الصوابي لم يلق من أهل عصره من يساعفه عليه، لذلك نجد أن دعوته لم تبرح "حماه" وأهل مدرسته، وهو ما يسجله المختار السوسي بقوله :"ثم إن وقف الهبطي مع ذلك لم يجمع عليه المغاربة ، بل منهم من قاومه كالإمام أحمد الصوابي أستاذ الحضيكي، فقد قام وقعد في ذلك، ورأى أن القراء لا يتماشون بسببه على السنن المأثور في المد عند أرباب الفن، ولكن صرخته ذهبت في واد، وإن كان أهل الزاوية "الماسّية" التي مضى فيها لا يزالون يتنكبون الوقف إلى الآن"[4].

وهكذا ستصبح مدرسة الشيخ الصوابي بالرباط المنسوب إليه بأكدال ماسة ـ في زمنه وبعده ـ عنوانا على هذا الموقف الرافض لوقف الهبطي، وسيدرج أهل رباط الصوابي أو "حمى الصوابي" ـ كما يسميه أهل سوس[5] ـ في أكدال ماسة بسوس على مذهب شيخهم الصوابي في القراءة بالوقف السني مذهب الشيخ ابن ناصر الدرعي لا يخرجون عنه .

---

[1] طبقات الحضيكي [٩٧/١] .

[2] ـ طبقات الحضيكي [٩٧/١] .

[3] ـ الرحلة الحجازية للحضيكي ص٦٠ ـ ٦١ .

[4] ـ مدارس سوس العتيقة ص ٣٤ .

[5] ـ ينظر في خلال جزولة [٣٣/٤] والمدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب : المدرسة الإلغية بسوس نموذجا للدكتور المهدي السعيدي ص ٦٥.

وما زال أهل رباط الصوابي إلى زمن الشيخ محمد المختار السوسي على ذلك، يقول في المعسول :"هكذا كان الشيخ أحمد الصوابي، ولا يزال محله في ماسة على ذلك فيما أدركناه، ونحن صغار"[١]، يعني على تحاشي وقف الهبطي في القراءة.

وهم يبنون اجتنابهم لوقف الهبطي على اعتقاد مفاده أن من قرأ به في خصوص رحاب ذلك الرباط يصاب بالعمى أو بمس الجن[٢].

وممن واطأ الشيخ الصوابي على موقفه من وقف الهبطي سميُّه ومعاصره ومشاركه في الأخذ عن الشيخ أحمد ابن ناصر الدرعي الشيخ أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي(ت ١١٧٥ هـ)[٣]. يقول الحضيكي :" وهذا شيخ وقته وإمام عصره سيدي أحمد بن عبد العزيز السجلماسي قد تنبه لذلك، فصار يَحْمِلُ الناسَ على القراءة الصوابية السّنّية القديمة، وألَّفَ على خطإ هذه الحادثة وفسادها"[٤].

والحضيكي هنا يشير إلى مؤلف أبي العباس الهلالي الذي سماه "عرف الند في حكم حذف المد" أو "الزهر الربيعي في حكم المد الطبيعي"[٥]، والمطلع عليه لا يجد فيه أي انتقاد موجه لوقف الهبطي، ولا جرى له ذكر في الكتاب، بل الكلام في الكتاب منصب على انتقاد ما شاع في زمنه عند جماعة من القراء من إسقاط المد الطبيعي لغير موجب، وختم الكتاب بالتنبيه على خطأين يتعلقان بالوقف يقع فيهما قراء الحزب : أولهما : إجراء الوصل مجرى الوقف ، فيسكنون المتحرك في الوصل. وثانيهما : ترك الوقف في قراءة الحزب أصلا ، لا بالسكون المحض ولا بغيره، بل كل واحد من القراء يسكت ويتنفس وحده عند عروض التنفس الضروري له، سواء عليه عرض له على حركة أو سكون، سواء كان في آخر الكلمة أو في وسطها[٦].

---

[١] ـ المعسول [٢٢٧/١٨].

[٢] ـ ذكر ذلك الدكتور الحسن وكاك في مقدمة تحقيقه لتقييد وقف القرآن الكريم للهبطي ص ١٥٦.

[٣] ـ أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، من ذرية الإمام الفقيه أبي إسحاق ابراهيم بن هلال السجلماسي. كان فريد عصره، وأعلم أهل زمانه، وأتقاهم وأشدهم تمسكاً بالسنة المطهرة واتباعها.أخذ العلم عن جماعة من المشايخ من أهل المغرب والمشرق أعلام الحرمين الشريفين ومصر وغيرهم. توفي رحمه الله في أواسط شهر ربيع الأول سنة ١١٧٥ هـ . وولادته عام ١١٠٣ هـ ، وهو من شيوخ الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي ومن شيوخ الحضيكي بالإجازة. ترجمته في طبقات الحضيكي [١٦٦/١ ، ١٧٠] رقم الترجمة ١٢٧ و ١٣٤والتقاط الدرر ص ٤٤ وشجرة النور ص ٣٥٥والأعلام للزركلي: ١/١٥١، المعسول: ٥٢-٣٢ والقراءات والقراء بالمغرب ص ١٤٠ ـ ١٤١.

[٤] ـ الطبقات [١٠١/١].

[٥] ـ طبع مؤخرا بتحقيق إبراهيم أيت وغوري بدار الكتب العلمية ، ط١ /٢٠٠٩ م .

[٦] ـ عرف الند ص ١٦٠ ـ ١٧٥ .

فالانتقاد ـ إذن ـ في هذه الرسالة منصب حول هفوات في الأداء والتلاوة بدأت تظهر في القراءة خاصة عند القارئين للحزب جماعة الآخذين بوقف الهبطي، وهي نفس الانتقادات التي نبه على بعضها الشيخ الصوابي في رسالته السالفة ، وألف في إنكارها غير واحد من أئمة المغرب لهذا العصر[1].

لكن الإنصاف يوجب علينا القول بأن تحميل وقف الهبطي جريرة ما يقع فيه القارئون به من أخطاء التجويد والتلاوة، سواء كانت قراءتهم فردية أم جماعية، فيه ما فيه من التجني والافتئات، وهو ما لم يفت الدكتور الحسن وكاك وهو يتتبع في مبحث خاص "من انتقد وقف الهبطي من العلماء وكيف انتقدوه" أن يلاحظه حيث قال :"أما انتقاد الصوابي وكذا انتقاد معاصره ابن عبد العزيز الهلالي فمنصرفان إلى ما يرتكبه قراء المغرب عند تطبيق هذا الوقف من إجراء الوصل مجرى الوقف أو الوقف على الحركة وغير ذلك، ونقدهما في الواقع موجه لقراء المغرب لا للشيخ الهبطي"[2].

مع أن بعض تلك الانتقادات والملاحظات مما قد يجد له وجها في القراءة أو اللغة فلا يسلم للقائل به . فقد حاول الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي في كتابه "القول الوجيز في قمع الزاري على حملة كتاب الله العزيز" توجيه ما لاحظه الشيخ الهلالي على قراء الحزب من إجرائهم الوصل مجرى الوقف ، وخرجه بثبوته قراءة ولغة، وذكر رجوع من انتقده على قراء الحزب حيث قال :"وقد كنت راجعت ساداتنا الفقهاء في ذلك ، فراجعت شيخنا العلامة سيدي أبا حفص عمر بن عبد الله الفاسي قدس الله سره فارتضاه[3]،

---

[1] ـ منهم من قراء فاس الشيخ عبد الرحمن بن إدريس المنجرة (ت ١١١١هـ) في جواب له عن الوصل بنية الوقف في القرآن ، هل يجوز في غير الوارد؟ منه نسخة بالخزانة الملكية برقم ١٧٧٤ وأخرى بالمكتبة الوطنية ضمن مجموع برقم ٢١٨٦ د. ومن شيوخ فاس أيضا ألف في الموضوع الشيخ أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف الفاسي (١١٢٥ ـ ١١٨٨هـ) كتاب "اقتباس أنوار الهدى فيما يتعلق ببعض وجوه الأدا" وقد طبع مؤخرا بمركز أبي عمرو الداني التابع للرابطة المحمدية للعلماء بمراكش بتحقيق د/ رشيد الحمداوي،كما ألف في الموضوع نفسه الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي (ت ١٢١٤هـ) "رسالة في المد الطبيعي" ، وممن ألف فيه الشيخ محمد بن قاسم، العيدوني الخمسي من قراء الشمال المغربي، ألف نظما في "مراتب المد"، والشيخ أبو محمد عبد السلام الشريف الزالي "له نظم في مراتب المد الطبيعي" إلى غير هؤلاء من القراء. ينظر القراءات والقراء بالمغرب لأعراب ص ١٤٠ وقراءة الإمام نافع عند المغاربة [٦٧/٥].

[2] ـ مقدمة تحقيق تقييد وقف القرآن الكريم للهبطي ص ١٥٤ .

[3] ـ هو الشيخ أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر الفاسي الفهري ، من علماء فاس ، ولادته سنة ١١٢٥ هـ ووفاته سنة ١١٨٨ هـ . ترجمته في طبقات الحضيكي [٥٢٣/٢] وسلوة الأنفاس [٣٨٤/١].

وراجعت شيخنا العلامة أبا العباس سيدي أحمدبن عبد العزيز الهلالي السجلماسي سقى الله ضريحه شآبيب الغفران وذلك على سبيل المراجعة فيما كتبه في مقيدة له في هذا المعنى ومثله ، وأوقفته على نص النشر فارتضاه، وقال لي : ما وقفت عليه حين قيدت ما قيدت، وفاوضت صفينا الفقيه النبيه أبا عبد الله محمد بن الحسن الجنوي[1] ، وهو كان السبب في مراجعة الشيخين المذكورين ؛ لأنه كان يفاوضني في ذلك كثيرا، ويكثر الطعن على الطلبة في فعلهم، وكنت أجيبه على ذلك فيتشدد في ذلك ولا يرتضيه"[2].

ولا غرابة أن نجد هذين الشيخين ـ الصوابي والهلالي ـ يبديان هذه الملاحظات والانتقادات على قراءة قراء عصرهما، إذ هما خريجا المدرسة الدرعية الناصرية مدرسة الوقف السني، فهما يمثلان بصدق ما كان يدعو إليه شيخ الزاوية الناصرية أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي الزينبي (ت ١٠٨٥ هـ) وابنه من بعده الشيخ أحمد بن ناصر (ت ١١٢٩) من التزام الوقف السني ونبذ ما سواه، لأنهما معا درسا على الشيخ أحمد ابن ناصر بتمكروت، وهو الشيخ الذي وضع معالم المدرسة الفيلالية اللمطية مدرسة مشايخ تافلالت وسجلماسة الكبار أمثال المقرئ الكبير أحمد الحبيب اللمطي وابن المبخوت ومحمد التهامي الأكمه الصحراوي والطالب "الأكحل" الفيلالي وأضرابهم وهي المدرسة التي تعد أقوم أهل المغرب بتجويد القراءة وحسن الأداء[3] .

وكان أتباع هذه المدرسة الناصرية الدرعية ـ كما يذكر عنهم الشيخ أبو عبد الله المسناوي ـ يسلكون طريقة الوقف على رؤوس الآي، التي تسمى بالوقف السني في الحزب الذي يقرأونه بالغداة والعشي[4].

ومما يوضح بجلاء قيام هذه المدرسة على نشر الوقف السني ومحاربة ما خالفه ما حكاه الخليفتي في الدرة الجليلة في مناقب الخليفة عن الشيخ أحمد الخليفة ـ وهو أحد أبرز شيوخ أبي العباس الصوابي ـ إبان أخذه القراءات السبع عن ابن أخيه المقرئ عبد الله بن محمد الكبير ابن ناصر، حيث كتب له اللوح ذات يوم ووقفه له بالوقف الهبطي، فلما رأى ذلك الشيخ الخليفة أنكره عليه وقال له :"ماذا تفعلون بالبدع؟ أردتكم تتبعون المحمدية وأنتم ترتكبون البدع مالكم ولها؟

---

[1] ـ هو أبو عبد الله محمد بن الحسن الجنوي الحسني دفين مراكش ، من كبار العلماء المحققين ، توفي سنة ١٢٠٠ هـ . ترجمته في الإعلام للمركشي [٩٣/٢].

[2] ـ القول الوجيز ص ٧٣ ـ ٧٧.

[3] ـ ينظر مقدمة تحقيق تقييد وقف الهبطي ص ٢٤ .

[4] ـ نوازل المسناوي ص ١٧٤ طبعة فاس الحجرية سنة ١٣٤٥ هـ نقلا عن تقييد وقف الهبطي ص٩٣ وهامش ١٢٦ .

قال: فقلت له: ياعمي وما حملني على الهبطي إلا أنه سهل عليك في الإرداف. قال: فقال لي: السنة أولى وأسهل، قال: فرجعت ومحوتها وكتبتها ووقفتها بالوقف السني، ورجعت إليه ومددتها له فاستبشر غاية"[1].

وهكذا كان مشايخ المدرسة الناصرية على نفس السنن في رفض الوقف الهبطي ، فهاهو الشيخ صالح بن محمد اللمطي(ت١١٧٩هـ) "الشيخ المقرئ أستاذ سجلماسة ونواحيها وزاهدها بعد أخيه وبركتها وسرها" كما يصفه الحضيكي، "كان ـ رضي الله عنه ـ يجود القرآن العظيم كما يجب على السنة القديمة، عارفا بالقراءات الأربع عشرة وأحكامها، أخذها من أكابر القراء ببلده كأخيه سيدي احمد الحبيب وغيره ببلاد المغرب، وينكر هذه القراءة الحادثة المسماة "قراءة الوقف" أشد إنكار"[2].

وذكر عن الشيخ سعيد بن محمد البوعثماني شيخ زاوية ووزغت بجبال تادلا المتوفى سنة ١١٤٨ هـ وهو من خريجي الزاوية الناصرية أنه كان يحفظ وقف القرآن السني ويلازمه في حزبه[3].

ولعل موقف الناصريين من الوقف الهبطي لم يكن له صدى في درعة وسوس والصحراء فقط، بل كان طابعا مميزا للزوايا الناصرية حيث ما كانت من بلاد المغرب، فهاهي زاوية الحاج علي بر كة بتطوان ـ وهي زاوية ناصرية ـ تتبنى الموقف نفسه في انتقاد وقف الهبطي خاصة في مواضع ثلاثة اشتهر عن الشيخ علي بركة أنه خصص لوصلها في الحزب الذي يقرأ بزاويته حُبُساً خاصا[4] .

إن موقف المعارضة لهذا الوقف الهبطي لم يقتصر على شيوخ الزاوية الناصرية والمتخرجين فيها فحسب، بل اشتهر عن غيرهم ، فقد انتقده الشيخ محمد المهدي الفاسي في رسالته :"الدرة الغراء في وقف القراء"، واعتبره الدكتور وكاك أقدم من انتقد هذا الوقف[5]،

وممن انتقده أيضا الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي في كتابه "المحاذي"[6] والسلطان مولاي سليمان العلوي في رسائل وافقه عليها علماء عصره[7]،

---

[1] ـ جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية للدكتور أحمد عمالك [٢٨٦/٢ ـ ٢٨٧] نقلا عن الدرة الجليلة للخليفتي ص ١٥٣ .

[2] ـ طبقات الحضيكي [١٤٦/٢] .

[3] ـ جانب من تاريخ الزاوية الناصرية [٢٨٩/٢].

[4] ـ ينظر مقدمة محقق تقييد وقف الهبطي ص ١٥٣ ـ ١٥٦ .

[5] ـ مقدمة تقييد وقف الهبطي ص ١٥٢ ـ ١٥٣ . وينظر القراءات والقراء بالمغرب ص ١٨٥.

[6] ـ اسمه الكامل "إتحاف الأخ الأود المتداني بمحاذي حرز الأماني" وهو ما يزال مخطوطا .

[7] ـ دعوة الحق : عدد ٥ س ١١ ص ٣٥ بقلم العابد الفاسي والقراءات والقراء بالمغرب ص ١٨٩.

ومن المتأخرين الشيخ الحافظ أبو شعيب الدكالي[1]، والشيخ عبد الواحد المارغني في رسالة خاصة مطبوعة بهامش بعض نسخ النجوم الطوالع على الدرر اللوامع له[2]، ومن المعاصرين الشيخ عبد الله بن الصديق في رسالة خاصة مطبوعة باسم "منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي".

[1] ـ حكى ذلك عنه تلميذه الشيخ عبد الله الجراري في كتابه من أعلام الفكر المعاصر [٤١/١] وينظر القراءات والقراء بالمغرب ص ١٨٩.

[2] ـ هامش ص ١٩٢ من النجوم الطوالع ، طبعة تونس ، ط١٣٥٧/١ هـ .

مسوغات معارضة وقف الهبطي

لقد تقدم في رسالة الشيخ الصوابي التي أوردتها بطولها تفصيل لبعض ما توجه به الاعتراض إلى وقوف الشيخ الهبطي، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

١ـ تحميل هذا الوقف جريرة ما واكب ظهوره من أخطاء القراء به في التلاوة وإخلالهم بأحكام الأداء، خاصة في القراءة الجماعية للحزب الراتب بسوس[١]، ومن تلك الأخطاء ما فصله الدكتور وجاج في فصل خاص[٢]، فذكر منها : تحريف وقف الهبطي من حيث كيفية النطق بمكانه، وتحريفه من حيث الزمان اللازم للوقف لفرط سرعة القراءة فيجرى الوصل مجرى الوقف، وتحريفه من حيث الوقف على الحركة ، تحريفه بزيادة حرف قبل الواو والياء حالة الوقف نحو {من خاوف}{رب أرني أنظر إلايك}، تحريفه من حيث زيادة حرف بعد الحرف الموقوف عليه أو تضعيفه حالة الوقف عليه، خاصة زيادة الهاء بعد حروف القلقلة ، نحو قولهم في الوقف على "ص" : "صاده" و"شقاقه" في الوقف على "شقاق"، تحريفه من حيث حذف حرف المد الطبيعي في الكلمة الموقوف عليها.

٢ ـ أن هذا الوقف لم يوضع يوم وضع للقراءة الإفرادية في الحزب الراتب ونحوه، بل للقراءة بالجمع والإرداف كما سبق في كلام الصوابي.

٣ ـ ما جرت عليه عادة الناس من رفض الجديد والتمسك بما ألفوه ودرجوا عليه، خاصة وأن الوقف الذي عليه المعارضون يسمى عندهم بالوقف السني، مما يكسبه صفة الإلزام، ويحيل على اعتقاد البدعية والإحداث في ما عداه.

٤ ـ أنه وقف محدث مبتدع مخالف للوقف السني المحمدي الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي دعوى تكررت فيما سبق نقله عن شيوخ المدرسة الناصرية وخريجيها كما رأينا عند الشيخ الصوابي.

---

[١] ـ مما جرأ بعض المتأخرين على التساهل في أمر الوقف ما سمعوه من متأخري مشيخة الإقراء من تنزه قراءة القرآن عن القبح بأي طريقة أو وجه قرئ ، وممن نسب إليه ذلك الشيخ يحيى بن سعيد الكرامي صاحب كتاب تحصيل المنافع من شرح الدرر اللوامع ونقله عن ابن مطروح، وهو ما نظمه الشيخ محمد بن إبراهيم الضيائي السوسي في كتاب تنبيه الغافل فقال :

وصرح ذو التحصيل أعلم غربنا بأن كتاب الله ربنا ذي العلا
على قبح لفظ قد تنزه كيفما قرأه قارئ على ذا فعولا

ينظر مقدمة تحقيق تقييد الهبطي ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .

[٢] ـ مقدمة تحقيق تقييد وقف القرآن للهبطي : الفصل الثاني في تحريف وقف الهبطي : المبحث الأول في بيان أوجه التحريف الملحوظ في تطبيق وقف الهبطي أثناء التلاوة في المغرب ص ١٦٠ ـ ١٦٨ .

وقد ناقش الدكتور وجاج دعوى السنية في الوقف على رؤوس الآي، وساق كلام الأئمة في ذلك ؛ ليخلص إلى أن التزام الوقف على رؤوس الآي غير لازم، لثبوت الوصل فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون الوقف عليها أو وصلها كلاهما ليس سنة راتبة في الأداء، بل هو سنة بالنوع والصلاحية لا بالشخص، لثبوت الكل عن النبي صلى الله عليه وسلم[1].

٥ ـ ما في بعض وقوفه من ضعف[2]، وهذا أهم ما يوجه لهذا الوقف من سهام الانتقاد، وقد تولى جماعة من العلماء والباحثين توجيه تلك الوقفات المنتقدة على الإمام الهبطي، ومنهم الشيخ ابن عبد السلام الفاسي في كتابه المحاذي، ولاحظوا أن عامة ما انتقد من تلك الوقفات ليس للهبطي فيه إلا النقل والاعتماد، لثبوته عن المتقدمين، وفي ذلك يقول الدكتور عبد الهادي حميتو :"إن طائفة من الوقفات التي ينتقدها المتأخرون عادة على الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي ـ واضع الوقف المغربي المقروء به في الوقت الحاضر بالمغرب والشمال الافريقي ـ هي في الواقع من اختيارات نافع في كتاب التمام، وأولها الوقف على "ذلك الكتاب لا ريب" في أول سورة البقرة"[3]. وقد سعى الدكتور الفاضل إلى إنصاف الشيخ الهبطي فيما يتعلق بطائفة من هذه الوقوف المنتقدة بتحقيق نسبتها إلى جماعة من العلماء والمؤلفين في الوقف والابتداء قبل الهبطي، مع التنبيه إلى وجوب استحضار أن من هذه الوقفات ما لا تصح نسبته للهبطي لما لحق تقييد الوقف المنسوب إليه من التغيير والتصرف من بعض القراء في العصور اللاحقة[4].

---

[1] ـ مقدمة تحقيق تقييد وقف الهبطي ص ٥٩ ـ ٧١ .

[2] ـ من ذلك الوقفات الثلاث التي أوصى الشيخ علي بركة دفين تطوان الذين يقرأون الحزب في زاويته بعدم وقفها وخصص لوصلها حبسا خاصا ، ومن نظم بعضهم قوله: مغلولة فلا تكن بواقف * فإنه حرام عند الواقف ولا على المسيح ابن الله * فلا تقف واستعذن بالله * فإنه كفر لما قد علما.قد قاله الجزري نصا حسبما القراءات والقراء بالمغرب ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

[3] ـ قراءة الإمام نافع عند المغاربة [٣٧١/١] .

[4] ـ ينظر قراءة الإمام نافع عند المغاربة [١٩٦/٤ ـ ٢٢٦] ومقال : نظرات في وقف الهبطي وآثاره للدكتور محمد بلوالي ضمن كتاب الكتاتيب القرآنية [١٣٥/٢] .

ب ـ المؤيدون لوقف الهبطي وجهودهم في خدمته

يشكل المؤيدون لوقف الهبطي غالب قراء سوس الذين تلقوا هذا الوافد بالقبول ولم يسمع عنهم اعتراض عليه لجلالة قدر المنسوب إليه، ونبل من حمله إلى بلادهم واعتمده من مشيخة الإقراء أمثال أبي عبد الله الترغي ورجال مدرسته كالبعقيلي والتملي والوسكاري.

ويُرجع بعض الباحثين موقف التأييد لهذا الوقف إلى ما أسبغه عليه أنصاره من القدسية حتى زعموه موافقا لما في اللوح المحفوظ، ولعل مما رسخ ذلك في العقول قصة الشيخ السنوسي السالفة الذكر، مما يفرض مقابلته بالتسليم والقبول[1].

ومن أوائل المؤيدين لهذا الوقف الذين مكنوا له في سوس تلاميذ الشيخ أبي عبد الله الترغي وعلى رأسهم الشيخ محمد المرابط البعقيلي الذي تقدم لنا أنه أول من قيد عن شيخه أبي عبد الله الترغي وقوف الهبطي وعنه انتشر تقييدها مكتوبا مقيدا بعد أن كانت في الألواح، ويشهد لما قلنا أن أقدم نسخ تقييد الهبطي هي من تقييد المرابط البعقيلي عن الترغي . ولهذا الشيخ ـ كما تقدم في ترجمته ـ مكانة بين شيوخ سوس وتجوال في ربوع جزولة مكنته من نشر هذا الوقف والتمهيد له عند قرائها، إذ يقول عنه الشيخ محمد المختار السوسي :"وأحسبه انقطع إلى زاوية الشيخ سيدي عبد الله بن سعيد ككثيرين أخذوا عنه من (جزولة) كسيدي يحيى بن يدير التازروالتي. وسيدي عبد الله بن داود من أهل (تانوت ويجان) الدغوغي وسيدي أحمد بن علي البوسعيدي دفين (فاس)، ثم إن المترجم ذكر أنه كان نحو أربع سنين في (أسرير) من (وادي نون) ويظهر أنه يشارط على عادة أمثاله من الفقهاء. وله محبة خاصة في الصالحين. يتحرى قبورهم بالزيارة. فأداه ذلك إلى أن جمع فيهم كراسه المشهور الذي يسميه الناس (مناقب البعقيلي) وهو أول من ألف فيما نعرف في رجالات (جزولة)"[2] .

ومن كبار رجال مدرسة الترغي السوسيين الذين خدموا وقف الهبطي بما أتيح لهم من طول التصدر للإفادة والإقراء بمراكش الشيخ المقرئ الكبير أبو عبد الله محمد بن يوسف التملي السوسي نزيل مراكش (ت ١٠٤٨هـ)[3]، ومن آثاره في ذلك "تقييد في رؤوس الآي التي لا يأتي عليها وقف الهبطي"[4]، قيده عنه تلميذه الشيخ محمد بن محمد بن أحمد الرحماني الحشادي.

---

[1] ـ مقدمة تحقيق تقييد وقف الهبطي ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

[2] ـ المعسول [١٢٩/١١] .

[3] ـ ترجمته في الإعلام للمراكشي [٢٦٦/٥] ترجمة رقم ٦٨٠ .

[4] ـ منه نسخة غير مرقمة بخزانة أوقاف آسفي المحفوظة بالمندوبية الجهوية للشؤون الإسلامية.

ومن أعلام قراء سوس الذين كانت لهم جهودهم في خدمة هذا الوقف بسوس حتى نُسب إليهم السبق إلى ذلك ـ كما تقدم ـ الشيخ أبو عمران موسى بن إبراهيم الوسكاري، الذي وصفه الحضيكي في ترجمته بـ"الأستاذ القارئ شيخ القراء"[1]، وهي أوصاف تصور ما بلغه هذا الشيخ ـ الذي أخذ عن شيوخ فاس كابن القاضي وغيره ـ في بلاده سوس من الإمامة والتصدر مما سيتيح له ـ لا شك ـ المجال لنشر هذا الوقف في أصحابه والآخذين عنه.

ثم إن من الطبيعي أن ينافح هؤلاء المؤيدون لهذا الوقف عن موقفهم ويواجهوا دعوة المعارضين باللسان والقلم خاصة دعوة الشيخ أبي العباس الصوابي بسوس، حتى دفع السجال بين الفريقين بعض قراء هشتوكة أن يؤلف كتابا في نصرة وقف الهبطي سماه "هز السيف على بعض من أنكر الوقف"[2]، ورجح بعض الباحثين[3] أن يكون هذا الكتاب من تأليف أبي عمران الوسكاري الهشتوكي الذي تنسب إليه أولية إدخال وقف الهبطي إلى سوس كما تقدم، لكن يظهر لي أن في ذلك بُعدا؛ لشهرة هذا الشيخ وتصدره وكثرة تلاميذه كما تقدم في ترجمته[4]، وارتباط اسمه بدخول وقف الهبطي، فلو كان الكتاب له لنص عليه مترجموه، خاصة مؤرخ سوس محمد المختار السوسي الذي قال في نسبة الكتاب :"وهو من تأليف "فقيه من قراء هشتوكة بسوس"[5] .

ولعل في خطاب أبي العباس الصوابي لأبي العباس العباسي في رسالته المتقدمة التي أوردها الحضيكي ما يشعر بأن العباسي أيضا كان مع المناصرين لهذا الوقف، القائمين في ذلك ، بل إنه الركن الأعظم الذي يستند إليه مناصروه؛ إذ نجد الصوابي يخاطبه في حدة فيقول :" وقد بعثت إليكم أيها الثلاثة كتاباً ولم أر له جواباً ذكرتُ به بعض ما أتحير به، ورأيت أن تلك القراءة خارجة عن قانون المصحف العثماني، وأنه لا يجوز سماعها فضلاً عن قراءتها، وأن هذا الحين هو الذي قيل فيه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه»،

---

[1] ـ الطبقات [٣٨٦/٢].

[2] ـ ينظر سوس العالمة لمحمد المختار السوسي ص١٩٥والقراءات والقراء بالمغرب ص ١٩٢ .

[3] ـ هو الأستاذ أحمد البوشيخي في مقال له بعنوان :"وقف الإمام الهبطي عند المغاربة وتباين مواقف بعض العلماء منه" منشور ضمن كتاب الكتاتيب القرآنية : الآليات ـ الأهداف ـ الآفاق [١٨٣/٢].

[4] ـ قال عنه الشيخ محمد المختار السوسي في رجالات العلم العربي في سوس ص٦٤ :" حاز مرتبة مشيخة القراء في عصره" .

[5] ـ سوس العالمة ص ١٩٥ .

وأن ما يسميه متعاطي القراءة في هذا الزمان وقفاً إنما هو إيهام وإلباس، وإلا فلا وقف ولا وصل، وقد رأيت أنكم لَهُم الركن الأعظم الذي يستندون إليه في هذا الوقت، فما دمتم في الوقت اتخذوكم حجة!

ولقد وددت لو أبديت هذا الأمر في حياة والدكم رحمه الله، ولو قُدِّرَ هذا الأمر لنصرني نَصْرًا مُؤَزَّراً، إذ هو أدرك زمان وفور القراءة على وجهها، إلا أنه ـ رحمه الله ـ لم يُنَبَّه، ولو نُبِّهَ لانتبه بأدنى تنبيه، لله دَرُّهُ مِنْ رَجُلٍ ما أَقْوَمَهُ بالحق إذا تَبَيَّنَ، غير خائف في الله لومة لائم، فنسأل الله الكريم أن يرحمه وأن يغفر له مغفرة تحيط بجميع هفواته"[1].

وهكذا أصبح وقف الهبطي بجهود هؤلاء المشايخ والقراء واقعا مستقرا في القراءة السوسية في عامة المدارس والمحاضر إلا ما سبق ذكره عن "حمى الصوابي" بماسة ، لتتجه بعد ذلك جهود قراء سوس إلى خدمته وتعميمه.

ومن أبرز وجوه الخدمات التي نالها وقف الهبطي بسوس مما لم يظفر بمثله في غيرها من البلاد التي دخلها بالمغرب وشمال إفريقية ما خدمه به الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم أعجلي البعقيلي السوسي (ت ١٢٧١هـ) في كتابه "الهداية لمن أراد الكفاية في ضبط أواخر الكلم مما صح بالرواية"، والكتاب إحصاء عام لتقييد وقف الهبطي، أحصى فيه الشيخ أعجلي وقوف كل حرف في القرآن، فمثلا يذكر أن عدد الكلمات الموقوفة المنتهية بالهمزة ٢٣٧ وقفة وأن الباء ٣٢٩ وقفة...وهكذا ، ثم بين مواضعها في القرآن الكريم. كما أن له جدولة حسب كل ربع من أحزاب القرآن الستين يذكر فيها عدد وقفات كل ربع ، وقد نشر الدكتور وكاك صورة لجدوله التام بالأوقاف في كل ربع وحزب من القرآن في بحثه. وذكر العدد الإجمالي للوقف في القرآن كله وهو أربع وأربعون وتسعمائة وتسعة آلاف وقفة (٩٩٤٥)[2].

---

[1] ـ طبقات الحضيكي[٩٨/١].

[2] ـ ينظر مقدمة تحقيق تقييد وقف القرآن للهبطي ص ١١٩ـ ١٢٢ والوقف الهبطي أهم مياسم التلاوة القرآنية في المغرب للدكتور حميتو، ص ٨١ .

افتتح الشيخ أعجلي كتابه بقوله: "الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم أعلم، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم... أما بعد فإن بعض الطلبة - أبان الله لي ولهم معالم التحقيق، وسلك بي وبهم أنفع طريق - لما رأى طلبة هذا الزمان المشار إليهم في معرفة كتاب الله تعالى رسما وغيره بالبنان، استصعبوا ضبط أواخر الكلم الموقوف عليها من كتاب الله الحكيم واستشكلوه، وجعلوا عظم اجتهادهم في معرفة ذلك وتحصيله، وصرفوا جل عنايتهم إلى أحكامه وإتقانه، وعدوا ذلك من الصعوبة في غاية، ومن المشقة في نهاية، سألني أن أضع له تصنيفا أبين فيه أحوال أواخر الكلم الموقوف عليها من شكلها إذا لم يوقف عليها، فأجبته إلى ذلك، وإن لم أكن أهلا لما هنالك، بعد استخارة الله المطلوبة من العبد في جميع أموره المهمة، جاريا في الوقف على ما قيده بعض العلماء المتقدمين عن الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن أبي جمعة الهبطي - رحمه الله تعالى ورضي عنه - ومحتذيا فيه طريقا سهلا...."، ثم ذكر منهاجه وأنه سيرتب الوقف فيه على الحروف الهجائية مبتدئا بباب الهمز فالباء والتاء ..إلخ على نحو ما وصفنا[1].

ومن متأخري مشايخ سوس الذين ناصروا وقف الهبطي وغالوا في تقديسه حتى جعلوه وقف أهل الجنة يقرأون به القرآن أمام رب العالمين برواية ورش، الشيخ الحسن بن محمد بن أبي جمعة البعقيلي الولتيتي السوسي نزيل الدار البيضاء في رسالة له بعنوان "إتحاف القراء المتحزبين المعانقين تلاوة كتاب الله المجددين" ونسب ذلك إلى الكشف والوجدان[2].

ثم إن العناية بوقف الهبطي لم تقف باتجاه الجنوب عند حدود سوس وما والاها من الجنوب المغربي، بل تغلغلت إلى تخوم بلاد شنقيط ، التي نظم فيها الشيخ محمد أحيد بن سيدي عبد الرحمن المسومي وقوف الهبطي في أرجوزة من ٧٣٤ بيتا ، سماها "سفينة السعادة"، واشتهر هذا النظم في بلاد موريتانيا والسنغال[3].

---

[1] - مقدمة الهداية للشيخ أعجلي مخطوط خاص .

[2] - مقدمة تحقيق تقييد وقف الهبطي ص ١٥٣ .

[3] - انظر مقال :"التعليم القرآني بالسنغال : الآليات والمناهج" منشور ضمن كتاب الكتاتيب القرآنية : الآليات والأهداف والآفاق [٣٢٧/١].

الخاتمة

وختاما فإن هذا السجال العلمي الذي دار في سوس حول وقف الهبطي ما هو إلا جزء من السجال العام الذي شهده المغرب كله عند ظهور هذا الوقف في نهاية المائة العاشرة وانتشاره في ربوع المغرب، وهو في حقيقته صراع بين أنصار الوقف الأدائي وأنصار الوقف السني بزعامة رجال المدرسة الناصرية الدرعية، ويجلي حقيقة هذا الصراع جواب الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي (ت ١١٣٦ هـ)[1] حيث سئل كيف يحيد القراء عن الوقف النبوي؟ وما حجتهم في تركه والذهاب إلى غيره؟ ولم لا يقال حسبنا الاتباع؟ وكيف كان الوقف قبل وقف الهبطي أعلى رؤوس الآي أم على التمام؟ فأجاب :"إنهم إنما عدلوا عن الوقف النبوي لما نص عليه الأئمة من أن وقفه ـ عليه السلام ـ لم يكن منه على جهة الالتزام، بل كان يقف للإعلام برؤوس الآي ، فإذا علمت وصل للتمام..." ثم قال :"ولما رأى أئمة القراء أن الغرض المقصود من الوقفات النبوية ـ وهو معرفة رؤوس الآي ـ قد حصل ، وفهموا عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدم الالتزام لذلك، استنبطوا وقوفا تحصل لها فوائد أخرى مما يرجع إلى المعنى والإعراب، واختلفوا في ذلك فسلك كل ما أداه إليه اجتهاده"، ثم قال :"قلت : وعلى هذا المنوال جرى الأستاذ أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي متحريا في ذلك ما ظهر له بحسب اجتهاده". ثم بين أن الزاوية الناصرية إنما اختاروا الوقف السني اقتداء بشيخهم أبي عبد الله بن ناصر ، {ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات}"[2]. إن هذا الجواب يعبر عن أن وقف الهبطي استطاع أن يفرض نفسه في القراءة المغربية ويكتسب المشروعية والجواز عند كبار علماء المغرب، ومنهم من تتلمذ لرجال المدرسة الدرعية الناصرية كالشيخ المسناوي الدلائي تلميذ أبي علي اليوسي والشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي تلميذ أبي العباس الهلالي من رجال المدرسة الناصرية . يقول الشيخ الحجوي في الفكر السامي في ترجمة الشيخ أبي عبد الله الهبطي :" وهو الذي يقرأ أهل المغرب بالوقف الذي جعله في القرآن الكريم منذ زمنه إلى الآن، مطبقين عليه وهو أخذه عن الإمام ابن غازي شيخه وإن كان في بعضه نظر ولكن تلقاه قراء المغرب بالقبول"[3] .

---

[1] ـ شيخ الجماعة بفاس، أديب وعالم متصوف، ولد بالزاوية الدلائية عام ١٠٧٢هـ، أخذ عن اليوسي وعبد المالك التجموعى، توفي سنة ١١٣٦ هـ . ترجمته فى طبقات الحضيكي [٣٦١/٢] ونشر المثاني [٢٥٦/٣] .

[2] ـ ينظر جواب الشيخ المسناوي في القراءات والقراء في المغرب ص ١٩١ ـ ١٩٢.

[3] ـ الفكر السامي [٢٢٦/٢ ـ ٢٢٧] .

فليس من الغريب بعد هذا أن تكون الصولة والغلبة في القطر السوسي كما كانت في غيره لهذا الوقف الهبطي وللمؤيدين له، كما سجله الحضيكي بقوله بعد أن حكى جهود شيخيه الصوابي والهلالي في مناهضة هذا الوقف:"لكن لم يسمع الناس منهما". وهو ما أعاده المختار السوسي بقوله :"ثم إن وقف الهبطي مع ذلك لم يجمع عليه المغاربة ، بل منهم من قاومه كالإمام أحمد الصوابي أستاذ الحضيكي، فقد قام وقعد في ذلك، ورأى أن القراء لا يتماشون بسببه على السنن المأثور في المد عند أرباب الفن، ولكن صرخته ذهبت في واد "[1].

وهكذا سيستقر العمل في سوس كلها على ما استقر على مثله في سائر ربوع المغرب من تبني هذا الوقف ودخوله في القراءة المغربية عامة وفي كتابة المصاحف والألواح إلى يومنا هذا. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

د/ حسن حميتو
كلية الآداب ـ جامعة ابن زهر
أكادير

تم بحمد الله ومنه وتوفيقه

تنسيقه وتصويره

على يد: طالب العلم/
جمعة بن عبد الله الكعبي

بالدوحة المحروسة ـ قطر

[1] ـ مدارس سوس العتيقة ص ٣٤ .